دعوة الحق

نظرات في قصص القرآن

"١"

محمد قطب عبد العال

السنة السادسة - العدد ٥٩
صفر ١٤٠٧هـ - أكتوبر ١٩٨٦م

دعــوة الحــق

سلسلة شهـــرية تصــــدر فى كل شهـــر عــــربى
عن إدارة الصحـافة والنشر برابطة العـالم الإسلامى

إشراف: أحمد محمد جمال

تطلب من : إدارة الصحـافة والنشـر برابطـة العـالم الإسـلامى
ص.ب. رقم ٥٣٨ ـ هاتف رقم ٥٣٦٤٩٣٢ ـ مـكة المكـرمة

مكاتب التوزيع فى الداخل

مكتبة الثقـافة : العتيبة ـ مـكة المكـرمة
مؤسسة الحريسى للتوزيع والإعلان · شارع التليفزيون ـ جنوب وزارة الإعلام ـ الرياض
مكتبة دار الشروق : العـدادية ـ جـدّة

مكاتب التوزيع فى الخارج

(مصر) مؤسسة الأهـرام : القاهرة شارع الجلاء ـ هاتف ٧٥٥٥٠٠ ـ ٧٤٥٦٦٦
(تونس) الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج ـ تونس
(المغرب) الشركة الشريفية للتوزيع والصحف : الدار البيضاء ـ ملتقى زنقة دينان وزنقة سان سانس

[٥ ريالات سعر النسخة] و ١٠٠ ريال الإشتراك السنوى للدوائر الحكومية والمؤسسات

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

نظرات
في قصص القرآن

محمد قطب عبد العال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

●● قال تعالى : ـ

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾

سورة يوسف

المقـــدمـــة

التراث العربى حافل بألوان تعبيرية متنوعة . ولقد حفل الشعر العربى على مدى الزمان وتتابعه بالدرس الأدبى والمدارسة التاريخية ، حتى كاد يطغى على ألوان التعبير الأخرى . ولا عجب فى ذلك فالشعر كما يقولون ديوان العرب .

وربما كان هذا الانكباب على الشعر ومدارسته وراء تخلف بعض الأنواع التعبيرية الأخرى والتى لم يُولها النقاد اهتمامًا كافيا فى النظرة والبحث . ومن الألوان التعبيرية القادرة على التعبير بشكل مؤثر وفعَّال ، اللون القصصى . والتراث الأدبى العربى ملىء بالنصوص القصصية المبدعة التى تثبت أن العرب يمتلكون موهبة القص والحكى مثلهم فى ذلك مثل الأجناس البشرية الأخرى .

وحظ القصة فى القرآن الكريم حظ وفير ومتعدد المجالات . فالقرآن الكريم نزل باللغة العربية وسيلة القوم إلى التواصل والفهم وأداتهم البليغة فى التعبير وصولاً إلى فن راق .

وكما أن القرآن تحدى العرب فى القول وهم فرسان الشعر وأربابه ، فقد تحداهم أيضا فى القصة . ذلك أن تراثهم النثرى قبل الاسلام يمتلىء بالقصص والحكايات ، والأساطير والأخبار والأيام .. ومن ثم لم يكن عجيبا أن يحفل القرآن الكريم بألوان

متعددة من القصة ، كنموذج صادق لما يجب أن تكون عليه القصة .

ودراسة القصة فى القرآن على جانب كبير من الأهمية ، ذلك لأن القصة قالب تربوى وإعلامى تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها ، وإلى النفوس فتنفضها نفضا . إن القصة فن يتلازم مع الإنسان منذ كان صغيرًا يسعد بالحكايات التى تقص له . فالقصة تقدم للقارئ عوالم زاخرة بحيوات متغايرة ، وبأجواء مختلفة ، وبأشخاص متنوعة ، وبصراع يدور بين خير وشر ، وعدل وظلم ، فتثير فى النفس العواطف ، وتجذب القلوب إليها وتهيىء العقول إلى السماع والترقب والفعل .

والقصة فى القرآن تساق لإبراز هدف دينى وتوضيح غرض من أغراض العقيدة . فهى منذ البدء تنطلق من منطلق دينى بحت . ولكن القصة القرآنية مع ذلك تفى بمتطلبات الفن القصصى . وتتضمن خصائصه وعناصره ولكن على طريقتها الخاصة .

والملاحظة الجوهرية على القصة القرآنية أنها جاءت متوزعة على سور القرآن كلها ، فلم تأت قصة ـ غالبا ـ وقد اكتملت منذ البدء حتى المنتهى فيما عدا قصة يوسف عليه السلام . وهذا التوزع لحلقات القصة مرتبط بإبراز الغرض الدينى ، وهو فى نفس الوقت ، متناسق تناسقا تاما ومبدعًا مع الموقف السياقى الذى وردت فيه الحلقة المسرودة من القصة المحكية .

وهى من هنا تختلف عن القصة البشرية اختلافًا جوهريا . فهى ليست عملا فنيا مستقلا ، وإنما هى إحدى وسائل القرآن الكريم

لتقديم العقيدة . والدعوة إليها ، وتثبيتها ورسوخها . وهى كأداة تعبيرية تندرج تحت القضية الكبرى للتعبير القرآنى . فالتعبير القرآنى فى كل ما يورده من صور وقصص ومشاهد ، يؤلف تأليفا ممتزجا امتزاجًا عضويا بين الغرض الدينى والغرض الفنى .

وكما يقول الشهيد سيد قطب (والفن والدين صنوان فى أعماق النفس وقرارة الحس . وإدراك الجمال الفنى دليل استعداد لتلقى التأثير الدينى ، حين يرتفع الفن إلى هذا المستوى الرفيع وحين تصفو النفس لتلقى رسالة الجمال) .

ولقد حاولتْ الدراسة أن تبرز جانب الفن فى القصة القرآنية بعد أن تكون قد أوفت الغرض الدينى درسًا وتناولاً ، ولقد صاحب ذلك نماذج تطبيقية مدروسة من كلا الجانبين الدينى والفنى .

إن بناء العقيدة فى النفوس يحتاج إلى الوسائل المؤثرة التى تتغلغل إلى القلوب مباشرة . ولا ريب أن القصة من أهم هذه الوسائل .

ولقد كان ذلك دافعى إلى الدراسة . والله أسأل أن يتقبل منَّا .

محمد قطب عبد العال

الفصل الأول

العرب .. والقصة

عرف العرب القصة من زمان طويل ، والأدب العربى ، حافل بكثير من الأنواع القصصية الدالة على أن العرب كغيرهم من الأجناس البشرية ذوو فطرة خلاقة ، وخيال مبتكر ، يدفع النفس إلى التأثر والابداع والابتكار . فالنفس البشرية مفطورة على التحرر من القيود ، والانطلاق بالخيال إلى آفاق رحبة ، عريضة . والإنسان منذ أن بدأ يعى دوره فى الحياة ، ويعمق من رسالته فى تعمير الأرض وإرساء أسسها فى البناء والتعمير والاستمرار ، ومنذ أن شرع يسجل بقلمه . تراثه ، وأحلامه ، وآماله ، والرغبة فى الانطلاق من أسر المكان الضيق تلح عليه ، والشعور بالحاجة إلى الترويح عن النفس ، ونسيان الجهاد الشاق الذى يخوضه فى سبيل تأكيد ذاته وسط عالم محتشد بالعنف والصراع .. بل وربما محاولة اختراق المجهول الذى يتبدى حوله فضاءًا هائلاً لا حدود له .. ولا أبعاد ..

والإنسان العربى كغيره من البشر ، خاض الصراع ، ومع الصراع تحدث القصص وتتحقق المآسى وتحل النكبات ، بل إن الصراع بين القبائل العربية فى الجاهلية أكثر هولاً مما نقرأه فى أدب

الاغريق من ملاحم وبطولات ، ومآسٍ . فلقد دامت الحروب فى العصر الجاهلى أكثر من أربعين عامًا كحرب البسوس مثلاً . ولا شك أن وراء ووسط وخلال هذه الحروب .. قصص وحكايات تروى ، وتحكى .. وكان ذلك مدعاة لظهور شخصية درامية ، كذات الشخصية التى نجدها فى المسرح الاغريقى .. وهى شخصية « الراوى » الذى يعيد سرد الحكاية ، فى أسلوب أخاذ شيق . بل إننا نستطيع أن نُطلق على عصر ما قبل التدوين عصر الرواة ، فى مجالات الرواية المختلفة ، دينا ، وشعرًا ، ونثرًا ، وقصصا .

« فالرواية » ما هى إلا نقل لخبر ما . أو حديث ما ، أو قصيدة ما ، أو قصة ما . وهى وإن كانت قد اقتصرت فى صدر الاسلام الأول على رواية الحديث . فلا يعنى هذا امتناع ورودها بالمعانى السابقة .

ولا يفوتنا فى هذه الجزئية أن نورد عبارة للكاتب الأديب القصصى محمود تيمور ، يبرهن فيها بالدلالة اللفظية ، والمعنى اللغوى على معرفة العرب للقصة والحكاية .

وحديث محمود تيمور فى هذا المجال له دلالة ، فهو أحد رواد القصة فى الأدب العربى الحديث ، وله إسهامات فى الرواية والقصة القصيرة ما يَجعله رائدًا بحق ، وتضيف إلى رأْيه النقدى حرفه الصانع الأدبى ، وذوق المبدع العربى ، دون تعصب أو افتئات . فالكاتب يرى أن الأمة العربية كغيرها من الأمم ـ وليس كما ادعى المستشرق ارنست رينان من خلو الأمة العربية من الخيال

الابتكارى ـ لها صياغاتها التعبيرية الخاصة وقوالبها الأدبية المميزة ، والذى منها الجانب القصصى المميز. (فنحن الذين قلنا من غابر الدهر « قال الراوى » و « يحكى أن » و « زعموا أن » و « كان ماكان » إلى آخر تلك الفواتح التى يمهد بها القصاص العربى فى مختلف العصور لما يَسْرُد من أقاصيص[1]) .

ونظرة واحدة إلى ألفاظ اللغة ، توضح لنا وجود الفن القصصى كأحد وسائل التعبير ، وكأحد أنماط تتبع الخيوط الروائية والحكائية . فوجود كلمة حكاية . تدل على أن ثمة شيئا قد وقع ، وبدأ الرواى يحكيه ، أو يحاكيه ، أو يضاهيه ، أو يماثله ، أو يحكى عنه .. وكلها دلالات تتفرع وتصب فى نفس المصطلح « حكاية » فهو مصطلح لغوى لم يوجد عبثا ، أو لمجرد اشتقاق لفظى بَحْت . وإنما هو دلالة مؤكدة على الرغبة ، والوجود المحقق لها ، وعلى العنصر القصصى . ومن منا لم يسمع عن (حديث خرافة) . إن خرافة كما تعلمنا جميعا وقرأنا رجلٌ رواية ، استهوته الجن فعلمته الغرائب ، ومن ثم بدأ يحكى من العجائب ما جعلها خارجة عن التصور العقلى ، مما سميت تبعا لذلك بالخرافة ..

وأيًّا كان المعنى ، فإن الخرافة قصة جميلة محبوكة يرويها راوٍ ، قبض على ناصية التعبير ، فشد أذهان الناس ، واستقطب مشاعرهم ، وأثّر فيهم ، حتى دهشوا مما يسمعون عن عوالم غريبة وعجيبة لا تعترف بالزمان أو بالمكان . ولكنهم بالرغم

---

(١) القصص فى الأدب العربى : محمود تيمور ص ٢٤ الجامعة العربية ١٩٥٨م .

من استمتاعهم .. أدركوا أن ما يروى أمامهم .. شىء ليس له أساس من الواقع ، أو يسانده العقل .. وكان أن أطلقوا عليه بالمعنى ، أو بالشخص ذاته .. اسم الخرافة .

ومن يقرأ الأمثال العربية المركزة ، الموجزة ، ذات الإيقاع الحاد والحاسم فسيدرك أن ثمة قصة وراء هذا المثل ، ولأن العربى قادر على التركيز والإيجاز قدرته على الإطناب وتتبع الخيوط والأحداث ، فلقد صاغ هذه القصة وجردها فى قليل من اللفظ حتى يضمن لها الثبات ، والمداومة ، والتسجيل . إن المثل العربى القديم بالنسبة للقصة أشبه « بالكود » الذى يستخدمه الحاسب الآلى . فما أن تأتى « بكود » ما يشير على موضوع ما ، إلا وظهرت لك معلومات ضافية عن هذا الموضوع . وكذلك المثل .. فما أن تقرأ المثل إلا وتستدعى القصة التى كانت موردًا وسببا له . بل لقد عرفت الأمثال العربية القصة الرمزية ، التى تدور حول الخير والشر ، والوفاء والحرص والواجب .. إلخ ومن يقرأ المثل العربى [كيف أعاودك وهذا أثر فأسك] .. ويدرك القصة التى وراءها فسيقف على عمق ونضج وخصوبة العقل العربى ، ومن ثم يضحى اتهام العقل العربى بأنه عقل سكونى ، اتهاما باطلاً لا يستند إلى دلائل علمية بحتة ، أو إلى استقراء فكرى وأدبى لناتج العقل العربى . ويبقى فى هذه الجزئية ، أن المستشرقين وهم يتحدثون عن الخيال والقصة . يقيسون ناتج العقل العربى القديم ، بمستحدثات الفنون فى المسرح ، أو الرواية .. أو الشعر التمثيلى . مغفلين ، البيئة ، ونوعية الصراع ، وتراكات الثقافة ، والأداة التعبيرية السائدة .. ثم لماذا

يقيسون على أدبهم هم ؟؟ ومن الذى أعطاهم حق أن يقيسُوا ناتج العقل البشرى عموما بناتج عقولهم هم ؟ ولماذا نجْرى وراءهم ، ونحن نعلم أن كثيرين منهم يصدرون أحكامهم وهم يضعون أعينهم على الإسلام كمحاولة للنكاية به ، والإساءة إليه ؟

ولقد ورد لفظ (قصة) المشتق من « قَصّ » كثيرا فى ميادين الأدب والحياة نفسها كما جاء فى القرآن الكريم باشتقاقاته الفعلية والاسمية . والقصة لغة من قَصّ الأثر أى تتبعه ، وأصل القصص فى العربية هو اتباع الشىء الشىء كما يقول أبو هلال العسكرى ، ومنه قوله تعالى **﴿وَقَالَتْ لأخْتِه قُصِّيهِ﴾**[1] وسمى الخبر الطويل قصصا لأن بعضه يتبع بعضه فيطول ، وإذا استطال السامع الحديث قال هذا قصص[2] .

ولقدر ورد فى لسان العرب تحت مادة « قصص » دلالات لفْظية منها : أن القاص الذى يأتى بالقصة على وجهها ... كأنه يتتبع معانيها وألفاظها .. كما وردت معانى مختلفة منها أن القصة : الخبر ، وهو القَصص . وقص علىَّ خبره يقصُّه قَصًّا وقصصا . أورده . والقَصص : الخبر المقصوص بالفتح وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه . والقِصص بالكسر جمع القصة التى نكتب ، والقصة الأمر والحديث[3] .

---

(١) سورة القصص آية ١١ .

(٢) قصص القرآن وقصص القصاص . د . أحمد محمد المجدوب ص ٦٤ الوعى الإسلامى عدد ٢١٣ رمضان ١٤٠٢هـ .

(٣) لسان العرب ، ابن منظور الجزء الثامن ص ٣٤٣/٣٤١ .

ولقد شاع استعمال كلمة القصة ومشتقاتها فى القرآن الكريم ، مما يدل على ذيوع عنصر القصة فى الأدب والحياة قبل الاسلام ، ذلك لأنه إن كان قد جاء القرآن الكريم معجزًا فى اللفظ والمعنى والتعبير والصورة مما ألجم الشعراء ، وجعل الناس ينصرفون عن الشعر إلى القرآن الكريم ليجدوا فيه الزاد والمتعة ، والجمال والحق .. فضلا عن العقيدة السامية .. فلقد وردت القصة فى القرآن الكريم للاعجاز أيضا فى مجالها التعبيرى . فالقصة فى القرآن جاءت لترد على كل أنواع القصص الذى شاع وسط العرب الجاهلين ، سواء كان صادقًا أو مختلقا ، .. لتبين وجه الاعجاز فى هذا المجال التعبيرى ولترسم النمط الصحيح للقصة الاسلامية التى يجب أن تسود المجالات الإبداعية ، حتى تصير معلما من معالم الأدب الإسلامى .

ولذلك فإن الآيات القرآنية الكريمة فرّقت بين النوعين ، القصة القرآنية والقصة الشفاهية الجاهلية . فلقد وصفت الآيات الكريمة تلك القصص بالبهتان والضلال والخرافة والغواية ووصفتها بأنها أساطير مختلقة ، وهى دائما توصف بأنها أساطير الأولين .. أى أباطيل وأحاديث الأولين .

قال تعالى ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُم ، قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِين**[1]﴾

[أى قالوا على سبيل الاستهزاء ، ما أنزله ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ، وليس بكلام رب العالمين...[2]]

---

(١) سورة النحل آية ٢٤ .

(٢) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

وهذا يعنى إدانة لكلمة الأساطير.. وهى تعنى فى الأدب نوعًا من القصة والحكايات والروايات ذات العجائب والأخبار الغريبة .

على حين جاء وصف القرآن الكريم للقصة القرآنية بأنها أحسن القصص .

وهذا يعنى أن القرآن يتضمن القصص ويعترف به فنا تعبيريا يتحدى به عقول وقدرات العرب الإبداعية . ولكنه جاء به كنوع مغاير تماما لما كان سائدًا أيام الجاهلية .

قال تعالى ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ**[1]﴾

(والمراد بالقَصصَ هى الأخبار التى قصّها علينا الله فى كتابه العزيز[2])

وهذه الأخبار إنما هى تحكى أخبار الأمم السابقين فى أسلوب معجز من البيان والجمال .

وقال تعالى فى مجال القصة ﴿**قَالَ يَابُنَىّ لاَ تَقْصُصْ رُؤياكَ علَى إخوَتِكَ فيكِيدُوا لك كَيْدًا**[3]﴾

والدلالة اللفظية تحمل النهى عن الإخبار أو الحكى ، ولا شك أن الحكى عنصر من عناصر القصة .

وآيات كثيرات فى القرآن الكريم وردت بها لفظة القصة ومشتقاتها ، دلالة ولفظا وخبرا ومعنى . وهذا يعطينا دليلا قويا على وجود القصة كفن تعبيرى فى الأدب العربى ، وفى حياة العرب أنفسهم .

---

(١) سورة يوسف آية ٣ .　　(٢) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص ٤٠ .

(٣) سورة يوسف آية ٥ .

والدلالات اللغوية حول مادة (قص) تعنى فى الأصل التتبع والاقتفاء وهو معنى ملحوظ فى القصة التى هى الجملة من الكلام المقصوص ، والقصة تكتسب هذا الاسم من معنى فعل القاص حين يمارس عمله فى قص الخبر فهو يأتى بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانيها وألفاظها ، ويقتفى آثار أحداثها فى ترتيب بعضها على بعض ، وكأنما القاص فى ذلك يحاكى قصاص الأثر وهو يتتبع آثار الأقدام على الأرض حتى يعرف مصير تلك الأقدام ويصل إلى النهاية ، وهى صلة تنطبق على المعنى اللغوى للفظ (قصة) وعلى المعنى الفنى بوجه عام ، وذلك حين يقوم القاص وهو يكتب قصة بتتبع الحدث من البداية حتى النهاية مرورًا بالوسط .

وكل هذه الدلالات اللفظية دليل قوى على أصالة العنصر القصصى فى تراث العرب ووعى العقلية العربية منذ القديم لألوان عديدة من أشكال التعبير القصصى[١] .

فالقصة كفن قولى تعبيرى ، كانت معروفة فى الأدب العربى وفى الحياة العامة كما قلت سابقا ، لأن القصة كانت تعكس حاجة الإنسان إلى التطلع والمتعة والتسْلية . وفى العصر الحديث نلاحظ التقدم الهائل الذى طرأ على القصة كعنصر أدبى ، وفاق ما طرأ عليها كل خيال ، وضربَ القاصُ فى كل اتجاه ، وأفاد من التغيرات التى طرأت على البناء القصصى . ومهما ساهم القصاصون العرب فى هذه الجدة القصصية ، فلا يمكن القول بأن العرب الأقدمين لم

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ، ص ٣٨ ، ٣٩ محمد بن حسن الزير . دار اللواء . الرياض .

يعرفوا القصة . لأنه لا حاضر بلا ماضٍ . ولا يصح القول بأنهم لم يعرفوا الفن القصصى لمجرد أن القصص التى وردت عنهم ، لا تتلاءم ومقاييس الفن القصصى الحديث . فالقصة فن قولى يتَّسم بالدراما والصراع .. ومن ثم فهى حركة من حركات الإنسان طالما أن الإنسان يدب على الأرض فى حركة ، مبتعدًا عن السكون . وعلى هذا فستبقى القصة مادام هناك إنسان يتحرك ويتجادل . وكل ما فى الأمر أن الإنسان بزمانه ، وبيئته . فإنسان العصر الجاهلى ببيئته ليس كإنسان العصر الحديث . وكذلك القصة ، فإنها تتغير وتتعايش مع كل زمان ، ومع كل بيئة بشكل ملائم تماما . إنها تغير من ثوبها الذى ترتديه لفظا ونسقا وبناءً ، تبعا للتطور الحضارى . والقصة دائمة ، .. لأنها تلبى حاجات الإنسان البشرية . ولهذا يجب أن نفْصلَ بوضوح بين فنيّة هذا القصص الذى يعتمد على الرواة الشفاهيين عن طريق سلسلة الإسناد المعروفة بالعنعنة ، والذى يمكن أن يعكس الأخبار والأيام والتاريخ ، وبين القصص المعاصر . فالقصص الحديث يبدعه فنانون التزموا فنه ، وأضافوا إليه . ولا يحق لنا أن « نستخدم نفس المعايير فى نقد وتقييم قصة للجاحظ فى بخلائه ، وأخرى لمحمود تيمور فى إحدى مجموعات قصصه » [1] .

إن القصة والقصص ليست مصطلحا حديثا ، جاء عن طريق التأثر بالآداب الغربية الحديثة ، وإنما هو مصطلح قديم ، وتسمية

---

(١) القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا . يوسف الشارونى ص ٤١ دار الهلال . القاهرة ١٩٧٧ .

ضاربة فى التاريخ . فقد وجد فى الجاهلية قصص كثير تنوعت موضوعاته ودارت حول الحروب والغزوات ، والحب ، والعشق ، والجان والسحر ، والعادات العامة الثابتة . والمخاطر .. والأمر الذى يجب أن يسجل ، هو أن ما قيل من قصص لم يكن يُؤلف ، ويُكتب ، وإنما كان الرواة يحفظون أخبارًا وأحداثًا ، ويتناقلونها . ومن ثم لم تحظ هذه القصص والحكايات بالتسجيل والتدوين إلا متأخرًا ، مما أدى إلى وجود إضافات حول النص الروائى الشفاهى الأصلى وكانت هذه الإضافات تساير التطور وتلاحق العصر ومتغيراته مما يوضح لنا مظاهر فنية طرأت على القصة مثل التعقيد ، الإثارة ، التشويق ، والمبالغة فى الوصف والتصوير . والقصص أيا كان نوعه يدخل فيه ما هو صالح فى موضوعه وعرضه ، وما هو طالح فى موضوعه وطريقة صياغته ، أو تحريف أصوله .

(أما قصص القرآن فهو القصص الحق وما عداه ليس كذلك ... إذ تتفاوت فيه نسبة الحق إلى الباطل . بل وقلما يرجح فيه الحق على الباطل[1]) .

وحين جاء الإسلام حدث تغير فى العقيدة ، والسلوك ، والقيم الأخلاقية ، وانقلب المجتمع الوثنى إلى مجتمع إسلامى . ولقد أثر هذا الإنقلاب أيضا فى القصة ، فاستحدثت موضوعات لم يتطرق إليها رواة ما قبل الإسلام ، وكذلك الأحداث ، مثل الموضوعات

---

(١) قصص القرآن وقصص القصاص . الوعى الإسلامى د.أحمد محمد المجدوب ص ٦٧ .

التى جاءت بها قصص القرآن نفسه . كما تناولت القصص أحداثا جديدة تبرز البطولة الإسلامية وتعلى من الإيمان وحسن الخلق والمروءة .

ولقد كانت القصة القرآنية ـ فى مرحلة تطور القصة الشفاهية ـ نموذجًا رائعًا لما يجب أن يحتذيه الفنان الذى يمارس عملية الإبداع القصصى ، فضلا عن أن القصة القرآنية كانت تسجل أولاً بأول ، فلم يكتنفها تأويل ، أو تحوير أو خلط ، أو إضافة ، مثلما كان يفعل الراوى قديما وهو يسرد القصة ، أو الخبر ، أو الحدث ..

إن القصة تعد أقدر الآثار الأدبية على تمثيل الأخلاق وتصوير العادات ورسم خلجات النفوس كما أنها إذا شرف غرضها ، ونُبل قصدها ، وحسنت موضوعاتها ، تهذب الطباع وترقق القلوب وتدفع الناس إلى التمسك بالمثل العليا والقيم الكريمة والمعانى السامية ، من إيمان وواجب وحق[1] .

ومن هذا الدور الذى تقوم به القصة كانت لها ولا تزال الشأن الأسمى فى آداب الأمم المختلفة قديمها وحديثها ، فهى قد وردت فى التوراة كما وردت فى الانجيل ، وزخرت بها آى الذكر الحكيم .

ولقد وردت القصة بتلاطمها وزخمها وغرائبها فى شعر الإغريق وملاحم الرومان وآثار المصريين القدماء ، وفى التعاليم الأسيوية الشرقية . والعرب أيضا .

وهذه القصص وإن كانت قد نجحت نجاحًا تامًا فى تصوير

---

(١) قصص العرب محمد أحمد جاد المولى وآخرون جـ ١ ص ٤٢٣ دار إحياء الكتب العربية .

العصور التى وضعت فيها ورسمت لنا البيئة التى نبتت منها رسما دقيقا معبرًا ونقلت لنا عادات وتقاليد وحضارة الأمم ، إلا أن الكثير من هذه القصص مُبْهم القصد ، وثنى السلوك ، ووثنى الأداة ، كما أن الأداة التعبيرية من لغة وأسلوب ونسق عام يميل إلى الرداءة . والعرب من الأمم التى أخذت بنصيب من هذا الفن الجميل وأُثِرَ عنها فيض من ذلك الأدب الرفيع .. ولكنه برغم فنيته كان غارقًا فى الأساطير والخرافات والأيام العربية الوثنية . وجاءت القصة فى القرآن لتكون لونًا آخرَ جديدًا فى هذا المجال التعبيرى الأخاذ .

الفصل الثانى

القصة وسيط مؤثر

القصة الفنية نوع الأدب الجميل ، له جماله الخاص ، وفيه متعته المميزة ، والقصة لها عالمها الواسع العريض ، الزاخر بالأحداث والأشخاص والتغيرات والصراعات بين القيم .. الخير والشر ، الجمال والقبح ، الصلاح والفساد ، والجدل المشتجر بين المعتقد الدينى والتقليد الوثنى ، وبين الأشخاص .. الرجل والمرأة ، الطّاغية والمصلح ، المحب والكاره ، الصادق والمنافق ، الحاكم والمحكوم .. عالم تحتشد فيه الرؤى والأفكار والعوالم السحرية التى تأخذ بالألباب . وهو فن يشغف به الصغار والكبار على السواء .. ويصبح له التأثير المؤكد على المتلقى إذا أُجيد تأليفه ، وأجيدت وسائطه وأساليبه ، وأحسن تلقيه . والقصة فى مجاليها المقروء والمسموع ، لها من التأثير بحيث تساعد على التحول فى الشخصية ، أو الايمان بمعتقد جديد وقيم أخلاقية جديدة ، أو التخلى عن عادات مرذولة لا تتلاءم والفطرة البشرية السّوية .

وفى المجتمع الذى لا يعرف القراءة أو الكتابة ـ كحال المجتمع فى صدر الإسلام ـ يصبح للوسيط ـ الذى ينقل القصة إلى المتلقين دور حاسم فى إبلاغ القصة ، وتوصيل المغزى للسامعين . فموقف

الوسيط وسيطرته باللغة والصوت والإشارة ، يعتبر تصويرًا حيًّا للقصة المسْرودة ، . ولغة السّرد هنا قد تكون لغة منشىء القصة وقد تكون لغة الوسيط نفسه . ويبقى على المتلقين المشاركة الوجدانية لما يسمعون من حوادث ، وتاريخ ، وصراعات ، وأبطال ، ومن ثم تحدث الرجفة ، أو هزة الانفعال الدالة على التأثر ، وتواصل الأفكار وتحققها ، . سواء كان ذلك التحقق مع ، أو ضد ، فالأمر فى النهاية يعنى أن ثمة تحولاً حدث للمتلقين وهم يسمعون من الوسيط أحداث القصة .

وعلى ذلك نستطيع أن نؤكد على انتشار ظاهرة الرواة ، وذيوع الرواية الشفاهية قبل عصر التدوين ، . ذلك لأنها تلبى شغفا حقيقيا فى النفس البشرية . فهى غذاء للوجدان والعقل ، حيث يجد السامع أو القارئ فى ثناياها ، الفكرة ، والمغزى والخيال والأسلوب ، واللغة الراقية .

وفى سرد القصة جمال آخر يتمثل فى جمال التعبير (وهو فن إذا أجيد سما بالقصة سموا عظيما ، وبعث فيها حياة جديدة ، وزاد فى قيمتها الفنية وفى تمتع السامع بها(١)) .

وسرد القصة ـ وتلك هى موهبة المنشىء للقصة ، ومهارة الوسيط .. فى نقلها للمتلقين ، شفاهة .. ـ يبث فيها روحًا جديدة قوية تجعلها حيَّة ماثلة أمام السامع ، وتحيلها صورًا واضحة زاهية ، وإيقاعًا جميلا متناسقًا فى الألفاظ والحركات والعواطف ،

---

(١) القصة فى التربية . د . عبد العزيز عبد المجيد ص ١١ .

والانفعالات ، وتعطى كل شخصية طابعها وصفتها الرئيسية .

ومن ثم يصبح للقصة ـ وقد تلقاها الفرد كأنما يراها مشاهد أمامه تحكى وتُرى بخيال ذهنه ـ متعتها الخالصة ، وأثرها القوى الذى لا يضيع . وقصص القرآن الكريم . تعتمد اعتمادًا قويا على السّرد ، العالى الذى يأخذ بالنفس ، ويصيب العقل بالانبهار . ولما كان المجتمع فى ذلك الزمان مجتمعا غير قارئ ، كان الوسيط الذى ينقل هذه القصص إلى المتلقين من المسلمين له أثره البارز ، ومكانته العالية ، خاصة وهو يجيد عملية السّرد .

إن الوسيط فى مثل هذه الحالة أشبه بالمربى الذى يستخدم القصة فى تعليم الصغار ، لاستغلال الشغف الفطرى إلى الحكى والحكاية .

ولعل إسلام عمر مثال بارز على تأثره بما سمعه من أخته وزوجها ـ بالرغم من ثورته ، فإن قراءة القرآن فى تلاوة جيدة ، .. تأخذ بالألباب وتخترق القلب مباشرة . لقد جاءه القرآن عبر الوسيط الجيد ، فأثر فيه وحوّل طريقه إلى الإسلام .

ولقد سمع عمر أخته وزوجها وهما يقرآن آيات من سورة « طه » .. ولا شك أن عمر رضى الله عنه أخذته الآيات بجرسها الصوتى ، وجمالها الإيقاعى ، وانتظام الآيات فى إيجازها المحكم . ولكنه وهو ينتزع الأوراق من أخته وبدأ يقرأ واجهته ـ فضلا عن الإعجاز اللفظى ، والجمال التعبيرى الأخاذ ، وموسيقى الألفاظ الأخاذة ، وتعانق الأنغام بعضها مع البعض الآخر ـ واجهت عمر رضى الله عنه قصة قرآنية ، هى قصة موسى . لقد تجسد التوجيه

الإلهى فى ثوب قصة مؤثرة استحوذت على عمر بن الخطاب وتملكت مشاعره ، وأثرت فيه ، وطهّرتْ مشاعره ، وجعلته فى النهاية يتحول تحولاً خطيرًا ، فيذهب ويعلن إسلامه . لقد عرضت سورة « طه » قصة موسى وهارون مع فرعون الطاغية الجبار ، ويكاد يكون معظم السورة فى الحديث عنها ، وبالأخص موقف المفاجأة بين موسى وربه وموقف تكليفه بالرسالة ، وموقف الجدال بين موسى وفرعون ، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة . وتتجلى فى ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى ، نبيه وكليمه ، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين[1])

ولا جدال فى أن المغزى من الآيات قد وضح لعمر بن الخطاب وهو يدرك مساندة الله لأنبيائه ، ومن ثم فلا جدوى من المكابرة والمعاندة .

ولقد أوردت الآيات الأولى تطيبيا للرسول ، وتأكيدًا على الوحدانية ، وتسلية للرسول بذكر قصص الرسل السابقين .

قال تعالى ﴿**إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فاخلَع نَعْلَيْك ، إنّك بالوادِ المقدَّسِ طُوىً . وأَنَا اخترتُك فاستْمع لما يُوحَى . إنَّنى أَنَا الله لا إله إلاَّ أَنَا فاعْبُدْنى وأقِمِ الصلاةَ لذِكْرى**[2]﴾ .

وتخيل معى عمر بن الخطاب وهو يتلقى هذه القصة بهذا الأسلوب المعجز اليقيني . والذى يحمل التوكيد على الأولوهية .. الدلالة السائدة فيه . فتكرار (إن) والضمير (أنا) وأسلوب القصر

---

(١) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص ٢٢٩ .

(٢) سورة طه الآيات ١٢ ، ١٣ ، ١٤ .

الموجود فى الآية ، كلها تأكيدات على وحدانية الله .. فمن خلال القصة ، التى تسردها الآيات عن موسى يبرز الغرض الدينى وهو إفراد الوحدانية لله جل وعلا . وتلك سمة بارزة من سمات القصة القرآنية . ثم انظر معى إلى الأمر الإلهى الموجه إلى موسى المصطفى ؛ « اخلع » إنه أمر « لموسى بضرورة التأدب فى مقام الهيبة الإلهية ، ثم الأمر التكليفى (أعبدنى) إنه أمر بإفراد العباد لله . والعبادة لها دلالة ومظهر ، والصلاة إحدى مظاهر التعبد لاحتوائها (على الذكر ،وشغل القلب واللسان والجوارح فهى أفضل أركان الدين بعد التوحيد[1])

وعمر بن الخطاب وهو من فرسان العرب ، ومتذوقيهم للشعر والأدب ، وأعرفهم بأثر اللفظ ، وتأثير العبارة ، لم يفته هذا النغم السماوى المتساوق الذى يثير فى النفس الرهبة ، والرغبة . ولم ينصرف خياله عن أحداث القصة ، ومساندة الله لنبيه ومآل الكافرين الضالين .. وحدثت الهزة ، وارتجف القلب ، ووصل التأثير إلى نهايته .. وآذن عمر فراقًا لجاهلية عمياء ، واتصالاً بدين الله المتين .

وانظر معنا كيف تمازجت الآيات القرآنية وهى تسرد القصة ، بالوسيط ثم بالمتلقى ، فيحدث الأثر المطلوب . إن القصة من هذا المنطلق التأثيرى تصبح أداة فعَّالة ومؤثرة فى تشكيل الإنسان وتكوينه تكوينا فكريا ووجدانيا . إن الإنسان مهيأ إلى أن تجذبه

(١) صفوة التفاسير الجزء الثانى ص ٢٣١ .

ما فى القصص من أفكار وخيالات وأحداث ، وسرد جميل له طلاوة اللفظ ورونق التعبير . والقصة القرآنية تلعب هى الأخرى هذا الدور الخطير فى صياغة الإنسان المسلم ، وتكوينه تكوينا إسلاميا كاملاً . يجعله قادرًا على تحمل ما يناط به من أمور الإسلام .

ولقد أدرك رسول الله ﷺ الدور الخطير الذى تلعبه القصة ، فاستخدمها من أجل إبراز الهدف التربوى ، باعتبارها وسيطا مؤثرًا فى الوجدان والفكر . حيث كان ﷺ ـ وهو يحتذى الهدف الدينى فى القصة القرآنية ـ يضمن القصص معانى عظيمة ، تنهل من القرآن الكريم ، كالأمانة ، والعفة ، والنزاهة ، وحب الله ، والحب فى الله ، والعمل الصالح ، والجهاد ، والصلاة ، وغير ذلك من الموضوعات التى تناولتها القصة النبوية الكريمة . ورسول الله ﷺ ، يصوغ المعنى والمغزى فى إشارات تضمينية . يساعد على توصيلها إلى المتلقى .. روعةُ التصوير وجمالُ السرد ، وإثارةُ التنبيه عن طريق التشويق مما يحقق الغرض الذى أُنْشِئَت من أجله القصة .

فالقصة لها تأثيرها الفعَّال لو أُحسن تأليفها ، وأُجيدت صياغتها ، وخاطبت فى نسقٍ تعبيرى واضح ، العقول ، والعواطف . ومن ثم كان دورها الخطير فى مجال التربية والتعليم . وكأنما القصة فى القرآن جاء استخدامها تربويًّا من الدرجة الأولى ، وكذلك القصة النبوية ، التى تأثرت بمنهج القصة القرآنية التربوى ، . لقد كان للقرآن الكريم ولسنة الرسول الكريم فضل الريادة فى هذا المجال التربوى الهام ، والذى لم يفطن إلى أهميته

رجال التربية وعلماء النفس إلا مؤخرًا .

وتستطيع القصة وهى تنهل من الدين الإسلامى وتغترف من ينابيعه الثرة ، فَضْلاً عن تأسيها بالقصة القرآنية ، وما ورد من قصص على لسان رسول الله ، تستطيع أن ترسى قواعد منهجية ثابتة تدعو وتدعم وتساهم فى تربية الروح والعقل والوجدان ، وتنزع من النفس سخائمها ، وإحباطاتها ، وحيرتها عن طريق ضرب النماذج السَّوِية من البشر . وهذا دليل واضح ومؤكد على أن الإسلام يدرك تمام الإدراك الميل الغريزى أو الفطرى لدى الإنسان ، الفطرة الصافية النقية ، المنطلقة ، المتخيلة ،.. فيستخدم القصة فى الدعوة والتربية وصياغة وجدان المسلم وعقله . ولكنه وهو يستخدم القصة كما ورد فى القرآن الكريم وسنة الرسول ، يضع النموذج الأمثل للقصة ، ويراعى فى الصياغة أن تكون متلائمة مع الغرض والهدف الذى وردت من أجله . فالقصة القرآنية قصة ملتزمة بالدين والتوحيد أساسًا ، وهو منطلقها ، وهو نهايتها أيضا .. إنها قصة دائرية ، يصبح مفتتح القصة هو قفلها أو نهايتها .

ولم يعد غريبا على القصة كوسيط مؤثر ، أن تحظى بهذه المكانة العالية فى القرآن الكريم . فلا تكاد تخلو سورة من قصة ، أو إشارة إلى قصة ، أو إبراز جزء من قصة ، أو تسجيل هدف سريع لقصة سريعة . ولم يكن الأمر فى القرآن ناتجا لمجرد السرد القصصى ، وإنما لما تستطيع القصة أن تؤثر به كمنهج تربوى يصوغ المسلم صياغة دينية أخلاقية كاملة ..

إن للقصة سحرًا ، ولها تأثيرًا يتأتى من المشاهد القصصية ، والمواقف الدرامية والأخيلة المنبعثة والمنطلقة ، والتى تنطلق لتعيد فى الذهن التصور الذى يلمسه ويحسه ويشعر به وهو يقرأ أو يسمع القصة ، إنه يلهث ـ الخيال ـ وراء كل شخص ويتتبع كل حركة ، ويشارك فى كل حوار ، ويعترض على الخطأ ويقف مع الصواب ..

إنه يجرى وراءها من موقف إلى آخر ، ومن حركة إلى شعور ، أو مما يحس به من مشاركة وجدانية لشخصيات القصة أو بعضها بما تثيره تلك المشاركة من مشاعر وعواطف أو من انفعال المتابع بالموقف وهو يتغلغل فى المتابعة وكأنما هو فى داخل حركة القصة يشارك فى أحداثها .

كل تلك الأشياء جعلت للقصة ذلك الأثر القوى فى النفس الإنسانية . وتلك الجاذبية الساحرة التى ظلت تلازم الإنسان منذ فجره القديم إلى يومه الحاضر . ولا شك أنها ستسير معه عبر رحلته الطويلة فى هذه الحياة . فالقصة لها أثرها الحيوى فى تربية الإنسان وتوجيهه والأخذ بيده نحو الأفضل ، وهو أثر نابع من الاستجابة الطبيعية التى يحس بها الإنسان وهو يتعامل مع تلك الوسائل ، لأنها تتجاوب مع إمكاناته النفسية وما جبل عليه من طبائع واستعدادات . وتوقع على أوتارها ما تنشده من غايات تربوية [1] . والقصة القرآنية تربط فى اقتدار إعجازى بين الجانب البنائى الفنى المؤثر والجانب النفسى ، بحكم أنها وسيط إلهى إلى الملتقى وهو الفرد

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ٣٥٤ .

المسلم . وهذا الارتباط إلتقاء مدروس لتحقيق الهدف الاعتقادى وهو التأثير الدينى . ودرس المؤشرات النفسية الدينية فى القصص القرآنى يكشف عن حقائق هامة فى علاقة الشعور الدينى بالعاطفة ، وارتباط الجانب الإلهى بالنفس ، لما فى هذه القصص من إثارات متنوعة ومن تجارب دينية ، كان الإنسان محورها ، ومن دعوات سماوية استفزت مشاعر الداعين والمدعوين ، وتولد عنها صراع طويل المدى بين أهل الحق وأهل الأهواء .

ولقصص القرآن الكريم أثر بليغ فى توجيه العقيدة والسلوك ، منشؤه شعور انفعالى دافع ، أو عامل وجدانى مؤثر . فتأثير بعض القصص الذى يصف ما نزل بالمكذبين لرسلهم من أهوال العذاب يحدث شعورًا بالخوف من عاقبة العصيان . وهذا الشعور بالخوف من العقاب الإلهى يتجدد فى نفس المؤمن كلما أثار انفعاله قصة من قصص القرآن الكريم[1] .

إن فى القصة سحرًا يسحر النفوس ، ويؤثر فيها ، وهو سحر مبعثه وسائل القصة ووسائطها من خيال يشاهد القصة ويتابعها موقفا موقفا ، ومن مشاركة وجدانية لما يقوم ويحدث لأشخاص القصة ، ومن انفعال نفسى بالمواقف حين يتصور القارئ أو السامع ولو بالوهم مشاركة فى الفعل والموقف القصصى والحدث المسرود .

أيًّا كان الأمر فسحر القصة قديم قدم البشرية وسيظل معها حياتها على الأرض ، وقارئ القصة أو سامعها ، يتعامل مع القصة

---

(١) القافلة . رجب ١٤٠٥هـ . سيكلوجية القصة . تأليف ، التهامى نقرة عرض . عبد الجبار السمرائى .

كما لو كان أحد أبطالها أو شخوصها . والإسلام يدرك هذا الميل الفطرى إلى القصة ويدرك مالها من تأثير على القلوب ، فيتعامل معها كوسيلة من وسائل التربية والتقويم والتهذيب والترويح الصافى النبيل .

ولقد كان أمرًا طبيعيا أن تكون القصة فى القرآن موجَّهة خاضعة للأغراض الدينية التى جاءت لتحقيقها فليس القرآن كتاب قصص وإنما هو كتاب تربية وتوجيه . ولكن الدقة فى الأداء ومراعاة القواعد الفنية فيه يجعل القصة مع خضوعها للغرض الدينى طليقة من الوجهة الفنية ، ويجعل استخدام القصص للتربية جزءًا من منهج التربية الإسلامية[1] .

فقصص القرآن لم تأت مجرد حكايات يُتَسلى بها . وإنما يسوقها لإيضاح مبدأ ، وللدعوة إلى فكرة ، وللنهى عن منكر . ولقد جرت العادة فى القصة القرآنية أنها إذا حكت أمرًا لا يُقره القرآن أو إذا ذكرت شيئًا يوهم غير المراد ، أشار إلى البطلان ويأتى بما يدفع الوهم وينفى الاحتمال[2] ، ليؤكد مساهمة القصة فى إرساء قيم التربية الخلقية ، وإبراز الأنبياء كقدوة للمربين وكمثل عليا للبشر أجمعين.

فالقرآن الكريم يستخدم القصة لجميع أنواع التربية والتوجيه التى يشملها منهجه التربوى ، تربية الروح ، وتربية العقل ، وتربية الجسم والتوقيع على الخطوط المتقابلة فى النفس ، والتربية بالقدوة ، والتربية بالموعظة . فهى سجل حافل لجميع التوجيهات وهى كذلك

---

(١) منهج التربية فى الإسلام . محمد قطب . ص ٢٤١/٢٤٠ دار الشرق .
(٢) أصول التربية الإسلامية . د . سعيد اسماعيل على ص ٤٣ دار الثقافة القاهرة .

على قلة الألفاظ المستخدمة حافلة بكل أنواع التعبير الفنى ومشخصاته من حوار ، إلى سرد ، إلى تنغيم موسيقى ، إلى إحياء للشخص إلى دقة فى رسم الملامح ، إلى اختيار دقيق للحظة الحاسمة فى القصة[1] ، وهى وسائل القصة القرآنية ووسائطها الفعَّالة فى التربية والتأثير والجذب والتشويق وذلك لتوجيه القلب والنفس والمشاعر والوجدان ، إلى العبرة ، وإلى المقصد الدينى ، وإلى الغرض الذى ضُربت من أجله القصة ..

إن القصة القرآنية إحدى وسائل التربية الإسلامية إلى غرس المفاهيم التى يرتبط بعضها ببعض فى إطار فكرى واحد يستند إلى المبادئ والقيم التى أتى بها الإسلام ، والتى ترسم عددًا من الإجراءات والطرائق العملية[2] .. يؤدى تنفيذها إلى أن يسلك المسلم سلوكًا يتفق وعقيدة الإسلام السمحاء .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن سيد قطب (فصل القصة فى القرآن) .
(٢) أصول التربية الإسلامية ص ٥ .

الفصل الثالث

طبيعة القصة القرآنية

لا ينكر إنسان واعٍ ومدرك للنشاط الخلاق لدى العقل البشرى أن القصة لعبت دورًا بارزًا فى الإعلام عن الذات البشرية ، أفكارها وهمومها وأحلامها وسجلت منذ أن بدأ يعى ما تقع عليه المدركات البصرية ، مما يدل على أن القصة لازمت الإنسان منذ وجوده ، وهذا مما يجعل النفس الإنسانية تميل إلى القصة ، وتسترسل معها ، وتنطلق عبر الرؤى التى تنثال من هذا العالم السحرى . ولقد بدأت القصة منذ طفولة الإنسان ، الطفولة الأولى من حياة البشر ، ولما كان الإنسان تلخيصا لمسرى التاريخ البشرى الطويل ، فإنه فى طفولته عموما كما هو فى شبابه ورجولته ميّال بطبعه إلى السماع إلى القصة ، أو الخبر المثير أو النادرة الطريفة . وللأهمية التى تكمن فى القصة بطبيعتها وعناصرها ، استخدمت فى استبصار المعضلات الإنسانية ومعالجتها .

وثمة فارق هائل يفرق القصة القرآنية عن غيرها من القصص الإنسانى ، ذلك أن الإسلام كدين هو منهج كامل متكامل من أجل الحياة ، وهو كمنهج ينعكس أثره وتأثيره على واقع الحياة الإسلامية ، فيلتزم به المسلمون التزامًا قويا ، فى الفكر والسلوك ،

والقيم الحياتية التى تشكل حركة المسلم فى إطار من الجماعة . وإذا ما تمسك المسلمون بقيم الدين الإسلامى تمسكا قويا فإن ذلك سيصبح إشارة فاعلة على التأثير الإسلامى فى الفكر والفن والحياة . ويصبح العمل الإبداعى كالقصة له ملامح خاصة تميزه عن غيره من أنواع الإبداع الأخرى . والقصص القرآنى يشتمل على قضايا نفسية تتضمن الترغيب والترهيب والتبشير والإنذار ، فتتوجه النفس الإنسانية بما جبلت على الفطرة إلى الإتجاه الصحيح وتبتعد عن الطريق المعوج . وإذا ما أنعمنا النظر فى القصص القرآنى لوجدنا أنه لا تكاد تخلو قصة من ترغيب يبعث على الرجاء أو ترهيب يثير الخوف . وهما محوران ــ الرجاء والخوف ــ أساسيان من قوى النفس البشرية . والإسلام وهو يستخدم هذا الأسلوب ، تثبيت العقيدة ، ونشرها ، وتكوين المسلم وصياغته ، يضع الصورة الصحيحة للمسلم بحيث يبدو ، فى الموضع الصحيح الذى يعتبر فيه المسلم شخصا متكاملاً ، فإذا ما نظر المسلم وهو يتلقى عبر القصص تلك الأخبار التى تتحدث عن المصائب التى لحقت بالأمم السابقة ، نتيجة ما اقترفت أيديهم ، ونتيجة عنادهم وإصرارهم على الكفر ، .. ازدجر واعتبر ، . وكذلك ما يناله المؤمنون الذين آمنوا بالله وتحملوا العذاب فى سبيل عقيدتهم ، من جزاء وفاق عملهم وثواب من الله ورضوان . لقد كفل الإسلام الخير لبناء النفوس وتهذيب الأخلاق وتربية البشر تربية صالحة .

وكانت القصة القرآنية أهم تلك الوسائل التى كفلت ذلك الخير للناس .

والقرآن الكريم كتاب موحى به من السماء على خاتم البشر أجمعين ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فهو كتاب دعوة إلى معرفة الحق ، والإيمان بالله ، ورسم وبناء الفرد المسلم والمجتمع المسلم بناءً إسلاميا كاملاً . ووسائل الدعوة إلى الله كثيرة ومتنوعة فى القرآن الكريم ، والقصة إحدى هذه الوسائل التى استخدمها القرآن الكريم لإبلاغ الدعوة ، وتوضيح أطوارها ، وكشف الماضيوالتاريخ السحيق منها ، وهى تتحدث عن الأمم السابقة ، والأنبياء السابقين ، وما لقوه من عنت وعذاب . وشأنها فى ذلك شأن الوسائل التعبيرية الأخرى التى تدعو إلى الله عن طريق تصوير مشاهد القيامة ، والجنة ، والنار ، والنعيم والعذاب ، وكذلك شأنها فى ذلك شأن الأدلة التى يسوقها الله سبحانه على البعث وعلى قدرة الله وعظمته ، وعن تفرده بالخلق كدليل على الوحدانية ، ومثل الشرائع التى فصلت ، والأمثلة التى ضربت ... لنماذج من البشر ، أو لمواقف تقتضى العظة والعبرة .

قال تعالى فى كتابه الكريم ﴿**تِلْكَ القُرَى نَقُصّ عَلَيْك منْ أَنْبَائِها ولَقَدْ جَاءَتْهُم رُسُلُهم بالبَيِّنَاتِ فَمَا كانُوا لِيُؤْمِنُوا بمَا كذَّبُوا منْ قَبْل ، كذلك يَطْبَعُ اللهُ على قُلوبِ الكَافِرين**﴾[1] . والآية من سورة الأعراف .

و (سورة الأعراف ، من أطول السور المكية ، وهى أول سورة عرضت للتفصيل فى قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور

---

(١) سورة الأعراف آية ١٠١ .

المكية تقرير أصول الدعوة الإسلامية من توحيد الله جل وعلا ، وتقرير البعث والجزاء وتقرير الوحى والرسالة)[1] .

ولقد ورد فى السورة الكريمة قصة آدم مع إبليس وخروجه من الجنة وهبوطه إلى الأرض ، والقصة تعطى نموذجًا كاملاً للصراع بين الخير والشر والحق والباطل ، وتعرضت السورة إلى بعض مشاهد يوم القيامة ، حيث تسجل الآيات الكريمات اللعنة والطرد والحرمان ، الذى يصيب الكفرة الجاحدين .

وتناولت السورة أيضا قصصا لأنبياء دعوا إلى التوحيد ، وصارعوا الوثنية وقاوموا ضلال أقوامهم . مثل نوح ، هود ، لوط ، شعيب وموسى . وكان الهدف من إبراز وإيراد تلك القصص هو إثبات التوحيد لله سبحانه وتعالى والإصرار على محاربة الكفر والضلال ، وبيان أن معركة الحق مع الضلال معركة أزلية حتى ينتصر الحق وترتفع راية التوحيد عالية خفاقة .

فالقصة القرآنية ، إذن ، هى إحدى وسائل الدعوة إلى الله وبيان وحدانيته والإقرار بالتوحيد عبر مواقف وأحداث وأشخاص وصراع وجدل وحوار ، وأسلوب وتعبير ، وتصوير وتنسيق ، مما يعطى لها الأثر المكين فى النفوس . كما أن القرآن الكريم قد حفظ للقصة مكانتها ، بحيث تصبح أداة فعّالة فى التوجيه والتربية والإعلام الإسلامى ، ذلك لأنها سجل كامل حافل بكل أنواع التعبير الأدبى من حوار وسرد ووصف ، وتنغيم إيقاعى ، وإيقاع

(١) صفوة التفاسير الجزء الأول ص ٤٣٤ .

موسيقى ظاهر وباطن ، وإحياء للشخصيات وتصوير رائع لحركة الشخصية وجودة الرسم والدقة لتبيان الملامح .. ثم تأتى اللحظة الحاسمة فى القصة لتخترق القلب الإنسانى فتوجهه إلى الوجهة الإسلامية الصحيحة .

ومصداقا لذلك فإننا سنقتطع آيات قليلات من قصة آدم ، وهى تصفه وحواء وقد ارتكبا الإثم ووقعا فى الخطأ . لنرى كيف عالجت القصة القرآنية هذا الموقف ، وكيف تضمن العلاج الطريق إلى الهداية ، وإلى الله .

قال تعالى ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِى لَهُمَا ما وُورِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِما وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكما عَنْ هَذِهِ الشّجرةِ إلاَّ أَنْ تكُونَا مَلَكينْ أوْ تكونَا منَ الخَالدِين * وَقَاسَمَهُمَا إنّى لكُم لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فدَلاَّهما بغُرورٍ فلمّا ذاقَا الشجَرَةَ بدَتْ لهُما سَوْءَاتُهما وطفِقَا يَخْصِفانِ عَلْيهما مِنْ وَرقِ الجَنَّةِ وَنَاداهُما ربُّهما أَلَمْ أَنْهَكُمَا عنْ تلكُما الشَّجَرَةِ وأَقُلْ لَكُمَا إنَّ الشَّيْطانَ لكُما عدُوّ مُبين * قالاَ ربَّنا ظَلَمْنا أَنفُسَنا وَإنْ لَمْ تغْفِر لنَا وَتَرْحَمْنا لنكُونَنَّ منَ الخاسِرين**﴾[(١)] .

خرج إبليس من الجنة مذمومًا مدحورًا . ومطرودًا من رحمة الله . ورضى الله عن آدم وزوجه فأسكنهما الجنة . وأباح الله لهما أن يتنعما بكل رغائب ما يتاح فى الجنة ، ولكنه جلّ وعلا لحكمة الخلق وعمارة الأرض قيّد تلك الحرية المنطلقة بقيد اختيارى ، بمعنى أن الله أمرهما ألا يقربَا شجرةً معينة . وهو قَيْد اختيارى يقصد به ابتلاء

---

(١) سورة الأعراف آيات ٢٠ ـ ٢٣ .

واختبار آدم وزوجه ، وليس قيدًا إجباريا على الحرية المتاحة لهما ، وإلا لكان صرَفَهُما عن الأمر كله .

والنفس البشرية مجبولة على الفضول وحب المعرفة والانصراف عن المتاح للبحث عن غير المتاح ، وتلك فطرة الله التى فطر الناس عليها . والقصة منذ البدء تؤكد على المعنى السابق كما توضح حين ترسى قواعد الأخلاق مبدأ تحمل المسئولية . ذلك أن القصة القرآنية لها سماتُها الخاصة فهى توحى بما تريد دون مباشرة . ولما كانت النفس البشرية مجبولة على الفضول فقد أصبح كل من آدم وزوجه مهيئين لأن يستمعا إلى وسوسة الشيطان بحكم الطبيعة البشرية . وقد ألح إبليس لعنه الله على هذا المفهوم مذكرًا إياهما بأنهما بشر وليسا ملائكة أو مخلدين . ولكنه وهو يعلم ذلك يقلب المعنى الذى يعرفه إلى معنى يثير الرغبة ، ويدفع إلى الانفعال والتحدى الذى هو نوع من العصيان ، يقلب المعنى ليصبح إغراءً للفِعْل .. فيبين أنَّ النهى الوارد إنما هو كراهية أن تكونا ملكين أو تصبحا من المخلدين .

ومَنْ مِنْ البشر لا يحب أن يكون ملكا أو يكون من الخالدين ؟ .. كان ذلك هو المدخل الذى تسرب منه إبليس وسوسةً وإغراءً بالعصيان . وتمعّن كلمة « وسوس » لتدرك ما توحيه تلك الكلمة من هسيس صوتى يخدر النفس ويحتوى العقل ، ولو تكررت الحروف وَ ، سْ ، لتتلاءم مع مداولة إبليس لإغراء آدم وزوجه لوقفنا على مقاطع صوتية متكررة تعطى إيقاعًا ذا طابع أزيزى ، يخدّر ، ويوقع الأذن فى خدر مرعوش .. وراجف .

وتلك الوسوسة هى المحاولة المستميتة لأعداء الله فى صرف

البشر عن طاعة الله . وذلك هدف مبثوث أيضا عبر القصة يوحى به الفعل ولا يصرح . وكعادة الأبالسة حين يحاولون صرف البشر عن طاعة ربهم بالإغراء والوسوسة ، وإيهام الفرد بقوته ، فإنهم يتبعون ذلك كله بالأيمان المؤكدة التى تعطى لما يهمسون به دلالة القوة .

ومن ثم فإن إبليس لم يترك آدم وزوجه لما وسوس به ، بل أتبع ذلك باليمين ، فحلف على ما قال ووسوس بأنه لا يخدع ولا يغش وإنما هو صادق النصح أمين فى نصحه . ولقد استخدم فى التعبير إنَّ ، ولام التوكيد ، ثم تكرار الضمير « لكما » لإبراز أهمية ما يقال لهما .

ويقع آدم فى الفعل ، وتصور الآية الكريمة حركة آدم وزوجه المتوترة ، القلقة الراجفة ، الضَّالة . فلم يعودا يعرفان شيئًا ، لقد وقعا فى المحظور ، وانتهى الأمر وبدآ يذهبان هنا وهنا ، يتخفيان من العيون ويخفيان سوءاتهما ، ثم تمتد أيديهما وتقصف ورق الشجر لتدارى عريهما .. وهما يتلصّصان النظر هنا وهناك ، هربًا من عين تراهما عريانين .. إن العرى هو فضيحة مؤكدة وكشف واضح للفعل الآثم الذى حدث منهما . ومن ثم كان ذلك التوجيه إلى الإنسان أن يستر جسده لأنه كمال للمرء وزينة له .

وحركة التخفى هذه حركة فى طبيعة البشر ، فليس آدم بدعًا فيها ، وإنما هو صانعها ومورثها ، ولكن عمّ يتخفون ، عن الله سبحانه الخالق الآمر الناهى ؟ .. ونادى الله آدم وزوجه نداءً توبيخيا ، مذكرا إياهما بتحذيرهما من الأكل من هذه الشجرة . ومذكرًا بعداوة الشيطان لهما . وهنا وبعد أن اخترق القلب الهدف

من القصة كلها ، قصة الوسوسة الأولى ، اعترفا بالخطيئة ، وتابا من الذنب وطلبا المغفرة .

هذا الجزء الصغير من القصة يعتبر وسيلة من الوسائل القرآنية لبيان الدعوة إلى الله ، ولتوضيح الصراع الدائم والأبدى بين الخير والشر ، والإنسان والشيطان ، ومن خلال هذا الجزء البسيط من القصة يتجلى التوجيه الإلهى فى تربية المسلم على تحمل المسئولية وعلى حرية الاختيار والالتزام بنتاج هذه الحرية ، ثم الرجوع عن الخطأ إن كان فى الفعل ما يشينه ويوقعه فى الخطأ . وبيان المبدأ الاعتقادى الأساسى بالالتزام بأوامر الله ونواهيه .

وعلى هذا فإن طبيعة القصة القرآنية ، طبيعة مغايرة لفنون القَصِّ الأخرى . فالقصة فى القرآن ليست عملاً فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه . (وإنما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى تحقيق هدفه الأصيل . والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء . والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة تثبيتها ، شأنها فى ذلك شأن مشاهد القيامة وصور النعيم والعذاب ، وشأن الأدلة التى يسوقها على البعث وعلى قدرة الله ، وشأن الشرائع التى يفصلها والأمثال التى يضربها إلى آخر ما جاء فى القرآن من موضوعات[1]) .

والأدب العربى بفطرته الأولى ، أدب عرف للقصة القرآنية الصدق الذى تميزت به ، مع إدراك الهدف الذى ينثال عبر

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن سيد قطب ص ١١١ طبعة بيروت .

القصة ، وذلك قبل أن يتجه الأدب العربى إلى الأخذ من الآداب الغربية وسائله فى القصة ، ووسائطها التعبيرية .

ولقد كان الإسلام حريصا على أن يعيش المسلم واقعه ، فى إطار من الخيال المستحب المتسامى البديع الذى لا يغرق فى الشر والإباحة أو يتخذ وسائل الخداع المخدرة .

ولذلك فقد قدم القرآن القصة ذات الصدق الموضوعى والشعورى بعيدًا عن الخلط بين الحقائق والأهاوم . فالقصة القرآنية صادقة كل الصدق ، ذلك لأنها تتناول ــ عبر الوحى الإلهى ــ موضوعات وأحداثًا وتاريخًا وأشخاصا ليس لنا بها دراية . وإنما نحن فى إطار التلقى أمام هذا النسق الإبداعى المعجز مبهورين ومشدوهين .

القصة القرآنية قصة صادقة بابتعادها عن الأساطير والخرافات والخيال الوثنى والوهم ، والاقتراب من الواقع المجرد وتتبع آثار الحقيقة ، بعيدًا عن تلفيق الوقائع أو اختلاق الأخبار المكذوبة .

ولعل من أعظم ما أعطى الإسلام للأدب العربى عمق المعرفة التى تدور على تحرير الأدب من الأساطير والخرافات ، وإيقافه عند الحقيقة دون مبالغة فى تصوير الواقع على النحو الذى كان يعرفه الشعر الجاهلى أو الملاحم اليونانية . ولقد ظل الأدب العربى يحاذر من أهواء رجال الفن والشعر والقصة الذين يعطون لأنفسهم من الحرية ما يدفعهم إلى تجاوز الحقيقة وتجاوز القيم الخلقية[١] .

---

(١) معلمة الإسلام أنور الجندى ص ٣٩٤ .

والقرآن الكريم يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة ، فتصبح القصة حادثًا كأنما يقع أمامك ، ومشهدًا تراه عينك ، لا قصة تُروى ولا حادث قد مضى وانتهى . إنها تحمل الماضى المستمر عبر الحاضر إلى المستقبل .

والإبداع القصصى فى القرآن لا يتأتى إعجازه وجماله وصدقه من ناحية اللفظ أو من ناحية المعنى ، أو من ناحية الحدث ، أو من ناحية النسق العام ، ولكن يتأتى من المنهج الكامل الفريد ، المتمازج ، الذى يذوب كل عنصر من عناصره فى قلب العنصر الآخر .

إن استحضار المشاهد فى القصة القرآنية ، والتعبير الموجه يبدو وكأنه مشهد حاضر مؤثر ، فكيف لعقل بشرى أن يؤدى تعبيريا ما يعبر عنه الأداء التعبيرى القرآنى ؟ .

قال تعالى فى مجال استحضار مشهد غرق فرعون . **﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِى اسْرائيلَ البَحْرَ ، فأَتْبَعَهُم فِرعَوْن وجنودُهُ بَغْيًا وعَدْوًا حَتَّى إذَا أَدْرَكَه الغرقُ قَالَ آمَنْتُ أنّه لاَ إلهَ إلاَّ الذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو اسرائيل وأنا من المسلمين﴾** [1] .

الآية الكريمة تستحضر مشهد غرق فرعون وتؤكد أن ذلك جاء نتيجة طغيانه وظلمه ، وأن إيمانه لم يفده لأنه إيمان المضطر . وانظر إلى الحركة التى تصورها الآية ، حركة الهروب الكبير الذى قام به موسى عليه السلام وحركة المطاردة العنيفة التى يقودها فرعون .

---

(١) سورة يونس آية ٩٠ .

قطبان للصراع .. وحركة الصراع لا تستقيم بهذا الشكل ، فقد رحل موسى بقومه ، ودينه إلى مكان آخر ، ولكن الإصرار على تصفية الدين ، وخفض راية التوحيد أمر لا يتلاءم مع الدعوة إلى الله . فكان أن أخذه الله أخذ عزيز مقتدر . والآية تبين أن الله ناصرٌ دينه ، ومعزٌ لرسوله .

وتخيل معى فرعون وهو يشهق شهقة الموت والماء المالح يتخلل حلقه منسربًا شيئًا فشيئًا ، وذراعه تتخبط هنا وهناك ، وفى اللحظة التى يأخذه فيها الموج ودواماته إلى أسفل ، يعلن إيمانه .. وأى إيمان هذا الذى أقدم عليه هذا الطاغية ؟

ويأتيه النداء الإلهى تقريعًا وتوبيخًا **﴿وَالآن وقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكنْتَ مِنَ المفسِدين . فاليَوْمَ نُنْجيكَ ببدَنِك لتكون لمن خَلْفَك آيةً ، وإنَّ كثيرًا من النَّاسِ عن آياتِنَا لغافِلُون﴾**[1] .

لقد حكت الآية السابقة مشهد الغرق ، ثم ها هو الخطاب الموجه فى مشهد حاضر ، ذلك بيان بأن فرعون قد استحق العقاب بما عصى ، ولقد جعله الله عبرة ، وعظة لمن يعتبر من البشر ، حيث أخرجه من البحر بجسده الذى لا روح فيه ، فها هو الجبار الطاغية ، الفرعون الظالم جثة هامدة لا روح فيها ولا دماء . إنَّ إخراج الجثة عبرة لغيره من الجبابرة حتى لا يطغوا مثل طغيانه . (قال ابن عباس : إن بعض بنى اسرائيل شكُّوا فى موت فرعون ، فأمر الله البحر أن يلقيه بجسده سويا بلا روح ليتحققوا موته

---

(١) سورة يونس آية ٩١ ، ٩٢ .

وهلاكه[1]) .

وبعد هذا الخطاب ، وبعد هذه الآية الدالة على العظة والعبرة ، تعود الآيات للتعقيب على هذا المشهد الذى يستحضره المشاهد رؤيا العين .

قال تعالى ﴿وَإِنَّ كثيرًا مِنَ الناسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُون﴾ وهنا يصبح التعقيب توجيها ونصحًا وإرشادًا وتربية ، وتلك طبيعة القصة القرآنية ، حيث تبرز الهدف من إيراد المشهد ، وتؤكّد على التذكير وإفاقة العقل من غفلته ، ليتدبروا آيات الله .

هذا منهج مكتمل تؤديه القصة القرآنية فى نسق بديع وأداء معجز ، حيث تضافر الغرض الدينى والإعلام التربوى بالفن القصصى . وكلاهما يضيء من مشكاة واحدة هى ذلك القبس العلوى الذى يملأ القلب سكينة وصفاءً وإيمانًا .

وقيمة الأثر الفنى ـ كالقصة ـ لا يكمن فى جماله الشكلى ، بل فى سحره البيانى وتأثيره النفسى ، وبما يحمل من قيم روحية واتجاهات جديدة فى الحياة . ومصدر الجمال فى الأثر الفنى ـ كالقصة ، ذلك الشعور الذى يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفني . ومن أجل ذلك كان لابد للفن الأصيل أن يكون قائمًا على قواعد الأخلاق[2] .

---

(١) صفوة التفاسير الجزء الأول ٥٩٧ .

(٢) القافلة رجب ١٤٠٥ ص ١٥ .

الفصل الرابع

أغراض القصة القرآنية

القرآن الكريم دستور المسلمين ، ووحى الله إلى رسوله محمد ﷺ ، وهو كتاب دعوة إلى الله أولاً وقبل كل شيء ، والقصة لم ترد فيه لمجرد المتعة أو لمجرد الإخبار عن تاريخ مضى ، بل هى كما ذكرنا إحدى الوسائل الهامة لتبليغ هذه الدعوة إلى الله ، توحيده ، وإفراد العبادة له . ومن ثم فالقرآن قد حفظ للقصة دورها الفعَّال فى شرح العقيدة وترسيخها ، وفى التأثير النفسى على الوجدان الإنسانى من منطلق أن القصة وسيط تربوى مؤثر ، مما يؤدى إلى تحويل الشخصية أو تحول المعتقد أو تطهير الذات . ولقد حملت القصة القرآنية تبعا لذلك الهدف المرسوم لها ـ التوجيه والتعليم والتربية والوعظ والإرشاد ، والتقويم والتسلية والإخبار عما مضى ، والعبرة بما حدث ، وإبراز الوحدة الكلية التى تنبثق منها الرسالات .. مما يُحدّدُ للقصة القرآنية إطارها الخاص ، وأغراضها التى تتناولها وموضوعاتها التى توصل أهدافها ومجرياتها إلى الناس .

وحتى تصل إلى لحظة الإقناع المؤثرة فإن لها أدواتها الخاصة بها التى تصل بهذا الإقناع إلى درجة التأثير والفعل . فهى سجل حافل لكل أنواع التعبير الجميل ، ولكل أنواع الفن المعجز الراقى ، من

شخصية درامية تكفل للقصة حدة الصراع المستمر ، إلى الحوار والسرد الذى يأخذ بالألباب ، والإيقاع الموسيقى الذى يهز النفس طربًا واهتزازًا ، إلى القدرة الفذة فى رسم الموقف الذى يبدو كما لو كان حيا يُشاهَد ، إلى لحظة الاختيار الدقيق التى هى هدف القصة . وهو إبراز الغرض الدينى الذى من أجله سيق ذلك كله .

ولا يصح أن تحكَّم مقاييس الفن القصصى فى الأدب البشرى بصورة آلية مطلقة على ما جاء فى القرآن الكريم (فهو ليس كتاب أدب ، وقد ابتدع فيه الخالق منطقه كما ابتدع فنه . والقصص القرآنى قصص دينى قبل كل شىء ، فلا يمكن النظر إليه من زاوية أدبية صرف وقد جاء لخدمة أغراض متنوعة . فلا يمكن تفسيره بالاعتماد على نظرية واحدة[1])

ومن أجل أن تحدث القصة الأثر المطلوب فلقد برز عنصر التصوير كأسلوب موصِّل إلى تحقيق الغرض الدينى من القصة . فهو يعبر بالصورة الحية المحسوسة ، عن الموقف ، والحالة النفسية ، وعن النموذج الإنسانى ، والطبع البشرى ، حتى تبدو الصورة المحسوسة حياة شاخصة متجددة الحركة ، فضلا عن نبض وسخونة القصص بحوادثها ومشاهدها ومناظرها ، وحوارها .

فما يكاد يبدأ العرض حتى يُحيل المستمعين نظارةً ، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول ، الذى وقعت فيه أو ستقع ، حيث تتوالى المناظر ، وتتجدد الحركات ، وينسى

---

(١) سيكلوجية القصة فى القرآن . د . التهامى نقرة ص ١٧٠ .

المستمع أن هذا كلام يُتلى ومثل يضرب ، ويتخيل أنه منظر يعرض ، وحادث يقع . فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو ، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات المنبثقة من المواقف. المتساوقة مع الحوادث وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة ، فتنم عن الأحاسيس المضمرة . إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة[1] .

ولقد تعددت أغراض القصص فى القرآن الكريم ، وكذلك موضوعاتها تعدُّدا يفى بجميع حالات العقيدة والإعلام عنها ، وترسيخ أصولها . وتلك الأغراض من الوفرة والتعدد بحيث لا تخلو منها قصة واحدة ، بل قد تتضمن القصة عددًا ضخما من الأغراض الدينية مثل إثبات الوحى ، والوحدانية ، ووحدة الأديان وغيرها .

وسنحاول أن نستعرض فى هذا الفصل بعضًا من هذه الأغراض الدينية الكثيرة التى وردت بالقصة القرآنية : ـ

أولا : العِبْرة .

قال تعالى فى محكم كتابه **﴿لَقَدْ كَانَ فى قَصَصِهم عِبْرة لأُلى الأَلْبَاب ، ما كَانَ حَدِيثًا يُفْترى ، وَلكِن تصْدِيقَ الّذى بَيْنَ يَدَيه وتَفْصِيل كُلّ شَىْءٍ ، وَهُدى وَرَحْمَة لِلْعَالَمِين﴾**[2] .

إن القصص القرآنى فيه العبرة ، وما ذكرت قصة إلا إذا كان معها عبرة أو عِبر وفيها المثلات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء الذين غرّهم الغرور ، والجبابرة الذين طغوا فى

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ٢٩ .
(٢) سورة يوسف آية ١١١ .

البلاد وأكثروا فيها الفساد والله من ورائهم محيط[1]

وسنقتطع جزءًا من قصة إبراهيم عليه السلام ، يتناول تحطيمه للأصنام . ذلك أن إبراهيم عليه السلام يرتبط بالعرب ارتباطًا قويا ، فهو بانى الكعبة ولقد شرُف بالبيت الحرام العرب أجمعون واعتزوا به اعتزازًا كبيرًا ، فهو مثابة للناسِ وأمنا ، ولقد بناه وولده اسماعيل ، كى يعبد فيه الله واحدًا لا شريك له . ومن ثم فلا يمكن أن يستسيغ عقل بشرى ناضج أن يمتلىء البيت الحرام بالأصنام التى تعبد من دون الله .. وإبراهيم هو بانيها ورافع أعمدتها .. وهو محطم الأصنام ، ومبرز ضلال الوثنية ، ومبين فساد العقيدة التى تتخذ من الأصنام آلهة لا تنفع ولا تضر ..

ولقد سيق هذا الموقف من قصة إبراهيم ، لبيان إثبات العجز للأصنام بالدليل القاطع كإشارة إلى ما يفعله كفار قريش من عبادة الأصنام والكفر بعقيدة الدين الجديد الذى يدعو إليه محمدٌ . فها هو القرآن يصور قصة تحطيم الأصنام التى عجزت عن دفع الأذى عنها .. لعل الكفار يعتبرون بها .

قال تعالى ﴿**ولقَدْ آتيْنَا إبرَاهيمَ رشدَه مِنْ قبْلُ وكُنّا بِه عَالمين . إذْ قالَ لأَبيهِ وقَوْمِه ، مَا هذِهِ التّماثيلُ التى أنْتمْ لها عَاكِفُون . قالُوا وجدْنَا آباءَنا لها عَابِدين . قَالَ لقَدْ كنتُم وَآباؤكُم فى ضَلالٍ مُبين . قَالُوا أَجِئْتَنَا بالحقِّ أمْ أنْتَ منَ اللاَّعِبين . قالَ بلْ ربُّكم ربُّ السّموَاتِ والأرْضِ الذى فَطَرَهُنَّ وأَنَا عَلَى ذَلكُم منَ الشّاهِدين .**

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٨٧ .

وتَاللهِ لأكيدَنَّ أَصْنَامَكُم بعْد أنْ توَلَّوا مُدْبِرين . فَجَعَلَهُم جُذَاذًا إلاّ كبيرًا لَهُم لعلَّهم إليْه يرجعُون . قَالُوا منْ فَعَل هَذَا بآلهَتِنَا إنّه لَمِن الظَّالِمين . قَالُوا سمعْنَا فتًى يَذْكرهُم يُقَال لَهُ إبْراهيم . قَالُوا فَأْتُوا بِهِ ، علَى أعيُن النّاسِ لعلَّهم يشهَدُون . قالُوا أأنْتَ فَعَلْت هذَا بآلِهَتِنا يا إبْرَاهيم . قالَ بلْ فَعلَه كبيرُهم هَذَا فاسْأَلُوهم إنْ كانُوا ينطقُون . فرجَعُوا إلى أنفُسهم فقالُوا إنَّكم أنتُم الظَّالمُون﴾ [1] .

الآيات الكريمة تسجل اعتراض إبراهيم على قومه وهم يعبدون الأصنام . وكعادة الأمم الضالَّة جاءت إجابتهم ، لتوضيح تقليد الضلال المتَّبع ، فأدانوا أنفسهم بالجهل والحمق والبعد عن العقل . ولقد أبرزت الآيات الحوار الذى دار بين إبراهيم وقومه . وكانت أداة الحوار تتراوح بين « قال » و « قالوا » وفى هذا الحوار يبين إبراهيم أن الله هو المستحق للعبادة ، وأتبع ذلك بالدليل البرهانى الذى يستثير الذهن وكوامن العقل . فالله خالق السموات والأرض ، وهو المستحق للعبادة ، وأنا ـ أى إبراهيم ـ شاهد على الوحدانية . ودبّر أمر تحطيم الأصنام ، وأثبت عجز الأصنام بالدليل القاطع والبرهان الساطع ، فقام إلى الأصنام وحطمها إلا كبيرهم . (قال مجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلّق الفأس الذى كسر به الأصنام فى عنقه ليحتجَّ به عليهم [2]) . وتلك قمة السخرية التى قام بها إبراهيم ازدراء بالأصنام واحتقارًا للعقول الضالة . وهنا يستشيط القوم غضبا ، ويصل الانفعال بهم إلى مداه . وغالبا ما يصبح

---

(١) سورة الأنبياء آيات ٥١ ـ ٦٤ .

(٢) صفوة التفاسير ٢٦٧ .

انفعال الجاهل غضبة عنيفة مدمرة ، وأصروا على محاكمته أمام الملأ ، وتنعقد المحكمة . ويبدو لنا رأى العين هؤلاء الظلمة وهم يحاكمون إبراهيم وتنهمر الأسئلة ويواجههم إبراهيم فى ثقة المؤمن بربه ووقوفه بجانبه . ويتوالى الحوار

ـ هل حطمت الأصنام يا إبراهيم ؟

ـ بل حطمها الصنم الكبير . ألا ترون الفأس فى عنقه ؟

ـ أتسخر منا ؟

ـ ها هى آلهتكم أمامكم فاسألوها تجبكم .

وكيف يسأل القوم الحجارة ؟ وهل إذا سألوا ستجيبهم الحجارة ؟ ورجعوا إلى عقولهم ، وأعلمهم إبراهيم أنهم بذلك ظالمون لأنفسهم . ويبلغ الانفعال مداه ، فيقررون حرق إبراهيم . ولكن الله ينجيه من مكرهم .

والعبرة هنا أن الله هو المعبود لذاته وأنه المتفرد بالوحدانية ، وأنه وحده الذى يضر وينفع ، وأن الأصنام حجارة اتخذها الضالون من دون الله لجلب النفع ودفع الضر ، وكانوا فى ذلك واهمين . ﴿**بَلْ نَقْذِفُ بالحقِّ علَى البَاطِلِ فيَدْمَغُه فإذا هُو زاهِقٌ**﴾

وسورة الأنبياء مكية ، وهى كغيرها من السور المكية ، تهتم بشئون العقيدة الإسلامية ، من توحيد الله ، وإفراده بالوحدانية ... وحفلت بذكر الأنبياء ، وهم يدعون فى كل دياناتهم إلى التوحيد والوحدانية ، ونبذ الشرك ومظاهره كعبادة الأصنام . وهى نفسها دعوة الرسول ﷺ .. إنها وحدة الأديان ، ووحدة العبرة وموضوعيتها .

وفى هذا المجال تتحدث السورة نفسها عن موقف كفار قريش من محمد ﷺ ، وكأنما هو استدعاء بالتماثل للعبرة لموقف إبراهيم وقومه قال تعالى ﴿**وَإِذْ رآكَ الذينَ كفَروا إنْ يتخذُونَكَ إلاَّ هُزُوا أهَذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهتَكُم وهم بِذِكر الرحمن هُمْ كَافِرون**﴾[1]

والآية تشير إلى أن كفار قريش كانوا يهزأون من رسول الله ﷺ ، ومن دعوته مشيرين إليه فى إنكار أن يكون هو الذى يسب آلهتهم ويسفه أحلامهم . إنهم يسخرون بالرسول رغم ضلالهم . إن المشركين يعيبون على منْ يجحد آلهتهم وينالونها بسوء ، فى الوقت الذى هم فيه يرتكسون فى قمة الضلال حين يجحدون ألوهية الله ، وهم فى ذلك فى جهل جاهل .

● لقد تشابه الموقف ، فتأكدت العبرة لمن يعتبر . وهى عبرة فى مجال التوحيد الإلهى ..

وقصة إبراهيم نفسها متعددة العبر ، كثيرة العظات . وكل جزء من القصة ذات عبرة مستقلة فى ذاتها .

● وطبيعة القصة القرآنية أن تتوزع أجزاؤها ومواقفها ، على مساحات متعددة ، ومواقف متغايرة ، لتتحقق العبرة ، ويتأكد الغرض الديني . ومن ثم ترتبط القصة بملمح رئيسى لها وهو التكرار . فالتكرار يتحقق فى القصة القرآنية بسبب تعدد العبر التى هى المقصد الأول من القصص . ولابد مِنْ إزالة لبس قد يتوهمه القارئ للقرآن فى مجالات القصة ، من معانٍ مكررة أو ألفاظٍ مرددة.

---

(١) سورة الأنبياء آية ٣٦ .

ولكن حكمة العليم الخبير تعالت كلماته اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء فى مواضع ، لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصة . ولو اجتمعت فى مكان واحد لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية ، وما تميزت كل عبرة تميزا يجعلها كونا مستقلا مقصودًا بالذات [1] . وبقية الأجزاء التى تتوزع على مدار السور القرآنية إنما تعطى العبرة الفعَّالة فى مجالها الخاص .

ولقد توزعت العبر فى سورة إبراهيم بتوزع القصة فى سور القرآن حيث وردت فى السور الآتية . (البقرة ، آل عمران ، الأنفال ، الأنعام ، مريم ، الزخرف ، الأنبياء ، الصافات ، الشعراء ، الحج ، النساء ، إبراهيم ، هود ، الحجر ، الذاريات ، النحل ، الممتحنة ، ص ، النجم ، العنكبوت ، والتوبة) [2] . وورود القصة جاء على هيئة إشارات دالة ، أو على هيئة مواقف ، وأحداث جسام أوكان المجىء لمجرد ذكر الاسم فقط .

والعبرة تدخل فى مجال التربية ، وخاصة حين تجىء نتيجة قصة تتناول ما حاق بالأمم الضالة السابقة ، تفيض بالعظة ، المؤثرة والعبرة البالغة . ولا شك أن تأثير العظة يكون أشد وأنفذ إلى القلب حين تبدو عبرتها من خلال عرض قصصى مشوق يربط السامع بأحداث القصة وشخصياتها من خلال مشاركته الوجدانية لهم ، وانفعالهم بمواقفهم تعاطفًا معهم أو ضدهم .

● والقرآن الكريم فى حديثه عن الماضين من أهل الكتاب وغيرهم

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٦٩ .

(٢) تفصيل آيات القرآن الحكيم .. ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى ص ٦٤ ، ٤٦٩ .

سلك طريق القصة لأنها أكثر قدرة على حمل العبرة ونقلها إلى السامعين . ولقد كانت العبرة والعظة فى تلك القصص الماضية فى القرآن الكريم غرضًا رئيسيا نص عليه القرآن صراحة فى محكم تنزيله [1] .

والموعظة دائمًا من أعظم الدوافع فى تربية النفوس وأقواها فى تحريك رواسبها وإثارة صحوة القلب فيها ، وتوجيهها إلى السير فى الطريق الصحيح تأثرًا بما تعرضه القصة من تجارب ماضية تهز أعماق الوجدان وتؤثر فيه . ثم إن الموعظة تلبى حاجة النفس الفطرية الدائمة إلى التوجيه والتهذيب ، ومن هنا كان تعهد القرآن الكريم بالتربية عن طريق الموعظة الحسنة والعبرة البالغة .

ولقد جعلت القصة القرآنية من أخبار الأمم والأنبياء .. وخاصة فيما يتصل بأخبار بنى إسرائيل مادة طيبة ذات مقاصد تربوية هادفة ، وجعلت منها دروسًا ومواعظ لاستخلاص العبرة [2] .

ومن ثم يتضح لنا أن العبرة غرض دينى هام من أغراض القصة القرآنية . ونذكر نموذجًا آخر للعبرة ، مجرد نموذج لأن تتبع أنواع العبر يحتاج إلى جهد إحصائى كبير يخرج عن إطار هذه الدراسة التذوقية .

ولا شك أن غرق فرعون عبرة لمن لا يعتبر من الظالمين . وفرعون جاءه موسى عليه السلام بآيات الله يدعوه إلى الإيمان والتوحيد ، والنزول عن عرش ألوهيته الكاذبة إلى مستوى العباد ، فيكون من

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ٣٦١ .

(٢) نفسه ص ٣٦٢ .

عباد الله المؤمنين . ولكن فرعون الطاغية ، أبى أن يستجيب لتلك الدعوة الراشدة ، الهادية إلى الطريق الحق والمنقذة من الضلال الذى يقع فيه ، فيركب رأسه ويمضى سادرًا فى غيّه وضلاله ، ويتحدى الله ، ورسوله موسى ، وقومه أجمعين . تلك اللحظة الحاسمة التى يؤخذ فيها الضال بضلاله ، والكافر بكفره . إنها اللحظة التى لا يدرك فيها الضال ـ لشدة ضلاله ـ الهاوية السحيقة التى يدفع بنفسه إليها .

قال تعالى . ﴿وقَالَ مُوسَى ربَّنا إنَّكَ آتَيْتَ فرعَوْن وَمَلأَهُ زينةً وَأَمْوالاً فى الحَياةِ الدّنيَا ليُضِلُّوا عنْ سَبيلك ، ربَّنَا اطمِسْ على أَمْوالِهم ، واشْدُدْ علَى قُلُوبِهم فَلاَ يُؤْمنُوا حتَّى يَرَوا العذَابَ الأليمَ * قَالَ قَدْ أُجيبَتْ دعوتُكما فاستَقيمَا ولا تتَّبعَانِّ سبيلَ الذّينَ لا يعْلَمُون * وجَاوزْنَا ببنى إسْرائِيلَ البحْرَ فَأَتْبعَهُم فرعْوَنُ وجُنودُه بغْيا وعدْوًا ، حتى إذا أدركَهُ الغرقُ قَالَ آمنْتُ أنَّهُ لا إلَهَ إلاَّ الذى آمَنتْ بِهِ بنُوا اسْرائيل وأنَا منَ المسلمين * الآنَ وقَدْ عصَيْتَ قَبْلُ وكنتَ مِنَ المفْسدين * فاليومَ نُنَجِّيكَ ببَدنِكَ لتكونَ لمنْ خلْفكَ آية ، وإنَّ كثيرًا مِن الناسِ عَنْ آياتِنَا لغافِلُون﴾[1]

وقال تعالى . ﴿وقَالَ فِرعَوْن يَا أيُّها الملأُ ما عَلِمْتُ لكمُ مِنْ إلهٍ غَيْرى فَأَوْقِد لى يا هَامَانُ علَى الطّين فاجْعَل لى صَرْحًا لعلِّى أَطَّلِعُ إلى إله مُوسَى وإنّى لأظنُّهُ منَ الكاذِبين * واستَكْبَر هُو وجنُودُه فى الأرْضِ بغير الحقّ وظنُّوا أَنَّهم إلَيْنا لا يَرْجِعُون * فَأخذنَاهُ وجنودَهُ

---

(١) سورة يونس آيات ٨٨ ـ ٩٢ .

فنبذْناهُم فى اليمّ ، فانظُرْ كيفَ كان عاقبةُ الظَّالِمين * وَجَعَلْناهُم أَئِمةً يَدْعُون إلى النّار ويَوْمَ القِيَامةِ لاَ يُنصَرُون * وأتبعْناهُم فى هَذِه الدنْيَا لعْنَة ، ويومَ القِيَامةِ هُمْ منَ المقبوحين﴾[1]

وفرعون الطاغية ، وككل طاغية ، يذكر جنوده دائمًا على أنَّهم يوالونه فى طغيانه ويمالئونه فى عدوانه . وحين جاءه الغرق لم ينقذه أحد ، ولم تمتد إليه يد ، بل استحق عقاب الله ، وأخرجه جثة حتى يكون عبرة لكل طاغية جبار .

ولقد مدّ الغرور له حبله إلى غايته ، حين لم يجد ـ خوفًا منه ـ ككل طاغية ، منْ قومه منْ يقف فى طريقه . ونادى قومه وجمعهم ليؤكد لهم أنه ليس هناك من إله غيره . وكم فى الحياة من فراعين لم يجدوا من أقوامهم أهل الرشاد . إنهم لو فعلوا ووقفوا فى وجه هذا السفه من هؤلاء المتسلطين عليهم لما قام فيهم منْ يلبس لباس فرعون . فالظلم والعدوان طبيعة من الطبائع الحيوانية ، المندسَّة فى الإنسان ، وهى تطلب دائما المنافذ لها فى أحوال شتى من أحوال الناس . وجاء القرآن الكريم منبها إليها ومحذرًا منها حتى لا يقوم لها سلطان على الإنسان فيظلم نفسه ويظلم الناسَ من حوله[2] .

ولقد وجهت الآية نظر محمد ﷺ إلى وجه العبرة والاعتبار فى القصة ، أو بالأحرى فى الجزء من القصة وهو غرق فرعون **﴿فانظُر كَيْفَ كانَتْ عاقبَةُ الظالمين﴾** . فالآية توجه نظر الرسول إلى مآل الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات . لقد

---

(١) سورة القصص ٣٨ ـ ٤٢ .

(٢) الإنسان فى القرآن الكريم ص١١٣ . عبد الكريم الخطيب دار الفكر العربى .

استحق هؤلاء اللعنة فى الحياة الدنيا وهم فى الآخرة مطرودون من رحمة الله .

ونتيجة لما سبق قوله فإن القصة القرآنية لم تقصد لذاتها ، بل للعبرة . ولما كانت العبرة لا تساق دفعة واحدة وإنما هى مبثوثة فى تضامين السّور والمواقف ، فإنه لا يوجد فى القرآن الكريم قصة نبى كاملة فى سورة واحدة إلا قصة يوسف عليه السلام .. وفى كل جزء مبثوث من القصة يستشهد بحادثة من الأحداث فى حياة النبى لإبراز عبرة أو لتوضيح موقف أو للتأثير العام[1] .

ثانيا : التوحيد

لا يساق القصص القرآنى للعبر فقط ، وإنما يساق أيضا لابراز أغراض دينية أخرى مثل الحقائق الاسلامية ، كالتوحيد .

وإننا نلمس البراهين على التوحيد من خلال السياق القصصى ، والتأكد على أنّ الله وحده هو الخالق وهو المستحق للعبادة وحده ، فلا معبود سواه . (وسوق الأدلة على التوحيد فى سياق القصة يجعله يسرى إلى النفس من غير مقاومة ، وتكراره يجعله يخط فى النفس خطوطا ، وتتعمق الخطوط فيكون الايمان[2]

ولا يعنى أن القصة تتضمن العبرة أنها لا تتضمن الدعوة إلى التوحيد فليس هنالك انفصال أو تجزئ بين الأغراض الدينية ، بل هى كلها تجتمع أو تفترق حسب المراد والغاية . فكما رأينا فى الجزئية

---

(١) مجلة « الهلال » عدد ديسمبر ١٩٧٠ . عبد الحميد جوده السحار .
(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٩٠ .

السابقة والخاصة بالعبرة ، مافعله ابراهيم بالأصنام لعل ذلك يكون عبرة لكفار قريش ، فلقد تضمنت الآيات الدعوة إلى التوحيد وسوق الأدلة على وحدانية الله ، فليس فى الأغراض الدينية انفصال . فهو حين حطم الأصنام إلى جذاذ بيَّن عجزها ، ودعا إلى عبادة الله الواحد الأحد القادر الفرد الصمد . وهو جلّ وعلا الذى انجاه من مكيدتهم فجعل النار برداً وسلاماً على ابراهيم .

وفى قصص الانبياء بلا استثناء تبرز الدعوة إلى التوحيد ، ففى قصة يوسف عليه السلام دعوة الى التوحيد وعبادة الله وحده لا شريك له ، بل لقد جعل يوسف سلواه وهو فى السجن الدعوة إلى الوحدانية ، وسوق الأدلة .

يقول يوسف عليه السلام لصاحبيه فى السجن **﴿يَا صَاحِبَى السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ متفرقُون خَيْرٌ أَمْ الله الواحِدُ القَهَّار . ما تَعبدُون منْ دونه إلا أسْمَاء سميْتُمُوها أنْتُم وآبَاؤُكم ، ما أنزَلَ الله بِهَا مَن سُلطَان ، إن الحُكْم إلاَّ لله ، أمَرَ ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاه ذَلك الدِّينُ القَيم ، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون﴾**[1] .

نداء موجه إلى صاحبيه ، يحمل دلالة التساؤل الإنكارى . أيهما أنفع يا صاحبى آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر كالأصنام أم عبادة الواحد الأحد . والاستفهام وإن جاء للإنكار فهو للتعيين ليضع صاحبيه فى موضع الاختيار . ذلك لأن الاختيار يتولد عن اقتناع كامل . ومن ثمّ تتحدد المسئوليّة . يا صاحبى إن ما تعبدونه ،

---

(١) سورة يوسف آية ٣٩ ، ٤٠ .

اخترعتُموه وأطلقتم عليه أسماء لا تملك القدرة أو السلطان . وكيف لجماد يا صاحبى أن يكون إلها . ما الحكم يا صاحبى إلاّ للواحد الأحد . إن ما أدعوكم إليه لهو الدين الحق الذى لا عوج فيه .

ولقد تدرج عليه السلام فى دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بين لهم أولا رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة ، ثم برهن على عدم استحقاق آلهتهم للعبادة ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد وذلك من الأسلوب الحكيم فى الدعوة إلى الله ، حيث قدّم الهداية والإرشاد والنصيحة والموعظة[1] وهو يتحدث عن البراهين والأدلة على وحدانية الله ، حتى يصبح للدليل تأثيره فى القلوب ، وأثره فى النفوس .

والقصص القرآنى وهو يثبت استحقاق الله للعبودية ، وينفى بطلان عبادة الأوثان التى هى أسماء سمّوها هم وآباؤهم ، لِيُؤَكِّدُ على إثبات الوحدانية أمام الذين يتخذون الأشخاص آلهة ، مثلما يدعون ألوهية المسيح مثلا .

قال تعالى . **﴿لقَدْ كفَر الذَينَ قَالُوا إنَّ الله هُو المَسِيحُ بنُ مَرْيم وقَالَ المَسِيحُ يَابَنِى اسرائِيلَ اعبُدُوا الله رَبِّى وربَّكم إنه من يُشْرِكْ بالله فقَدْ حرّمَ الله علَيْه الجَنَّة ومَأوَاه النَّار وما للظَّالمين مِنْ أنْصَار . لقَدْ كَفَرَ الذّينَ قَالُوا إنَّ الله ثالثُ ثلاثَة ومَا مِنْ إله إلاَّ إله واحِدٌ وإنْ لَمْ ينتَهُوا عمَّا يقُولُون لَيَمَسَّنَّ الذينَ كَفرُوا مِنْهم عذابٌ أَلِيم . أَفَلاَ يَتُوبُون إلىَ الله ويَسْتَغْفِرُونه والله غَفُورٌ رحيمٌ . مَا المَسِيحُ بن مريمَ**

---

(١) صفوة التفاسير ص ٥٢ الجزء الثانى .

إلاَّ رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْله الرسُل وأمُّه صدّيقَةٌ كانَا يأكُلاَن الطَّعَام ، انظر كيْفَ نُبَيِّن لهُم الآياتِ ثمَّ انْظر أنَّى يُؤْفكُون﴾ [1] .

لقد وضحت القصة الفرية التى افتراها بنو اسرائيل على عيسى عليه السلام فنفت الدعوى من أصلها ، وبينت أن المسيح لا يدعيها وإنما كان الداعية إلى التوحيد والنافى للشرك بربوبية الله . وأن المسيح مخلوق كسائر الناس وأن الله ربُّ الناس أجمعين كما هو ربُّه . وجاءت القصة بالدليل القاطع الذى لا يحتمل الشك أو التأويل ، فبيَّن أن عيسى وأمه ليسا إلا شخصين يعيشان كما يعيش الناس ، ويأكلان كما يأكلون . ولقد أدانت الآية ادعاء التثليث وأكدت على وحدانية الله ، واحدًا فردًا صمدًا . لم يلد ولم يولد .

إن نفى التثليث وإثبات بطلانه بالدليل جاء فى ضمن قصة ، فكان تصريفًا فى الاستدلال ، إذ أن سوق الدليل فى ضمن قصة يجعله أكثر سريانًا فى النفس وانسيابًا فى جوانبها .

(والتوحيد كان هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول . والقرآن الكريم يقرر هذه الحقيقة ويؤكدها ويكررها فى قصة كل رسول كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين [2]) .

والتوحيد هو المقوم الأول فى التصور الإسلامى وهو الحقيقة الأساسية فى العقيدة الإسلامية ، كما هو الحقيقة الثابتة فى

---

(١) سورة المائدة آيات ٧٢ ـ ٧٥ .

(٢) خصائص التصور الإسلامى ومقوماته . سيد قطب ص ٣٠٩ . وزارة المعارف المكتبات المدرسية .

الرسالات السماوية جميعها . إنه الخاصية البارزة فى كل دين جاء به من عند الله رسول . فالدين كله من عند الله . من عهد نوح إلى عهد محمد . وأن المؤمنين كلهم أمة واحدة ، والله الواحد ربُّ الجميع ، وكثيرًا ما وردت قصص عدد من الأنبياء مجتمعة فى سورة واحدة معروضة بطريقة خاصة لتؤيد هذه الحقيقة . ولما كان هذا غرضًا أساسيا فى الدعوة وفى بناء التصور الإسلامى فقد تكرر مجىء هذه القصص على هذا النحو مع اختلاف فى التعبير لتثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها فى النفوس[1] . قال تعالى : ﴿**لَقَدْ أرْسَلْنَا نوحًا إلى قَوْمِهِ فقالَ ياقومُ اعبُدُوا الله ما لكُم مِنْ إله غيره ، إنّى أخَافُ عليكُم عذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[2] .

وقال تعالى . ﴿**وَنُوحًا إذْ نادَى مِنْ قَبْلُ فاستَجَبْنَا لَهُ فنَجّيناهُ وأهلَه مِنَ الكَرْبِ العظِيمِ . ونصرنَاهُ مِنَ القَوْمِ الذينَ كذّبوا بِآيَاتِنَا إنَّهم كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَأَغرقْنَاهُم أجْمعينَ**﴾[3] .

لقد دعا نوح قومه إلى التوحيد فأبوا فاستحقوا عقاب الله .

وقال تعالى . ﴿**وهل أتَاكَ حَديثُ مُوسَى . إذْ رأَى نارًا ، فقالَ لأَهْلِهِ امكثُوا إنِّى آنسْتُ نارًا ، لعلّى آتِيكُم منْها بقبَسٍ أوْ أَجدُ علَى النّار هُدَى . فلما أتَاهَا نُودِى يا مُوسَى . إنى أَنَا ربُّك فاخْلَع نعْلَيك إنَّك بالوادِى المقدس طوى. وأنا اخْتَرْتُك فَاستَمِعْ لما يُوحَى. إنَّنى أَنَا الله لاَ إلَهَ إلاَّ أنَا فاعْبُدْنِى وأقِم الصَّلاةَ لذِكْرِى**﴾[4] .

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن . سيد قطب . ص ١١٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ٥٩ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٧٦ ، ٧٧ .

(٤) سورة طه آيات ٩ ـ ١٤ .

وقال تعالى . ﴿**وَاذْكُر أخَا عَادٍ إذْ أنذَر قومَه بالأَحْقَاف ، وقد خَلَتْ النذُر من بَيْن يدَيْه ومنْ خَلْفِه ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ الله إنِّى أخافُ عليكمُ عذابَ يومٍ عظيمٍ . قَالُوا أَجِئتَنَا لتَأْفِكنَا عنْ آلِهَتِنا فأْتِنَا بمَا تَعِدُنَا إنْ كنتَ من الصَّادقِين . قَالَ إنَّما العلمُ عنْدَ الله وأبَلغكُمْ مَّا أُرسلْتُ بِه ، وَلكِنِّى أراكُمْ قومًا تَجهَلُون**﴾[1] .

فالدعوة إلى دين الله الواحد الأحد ، وإلى التوحيد ، وإفراد الله بالعبادة وهو جوهر العقيدة الإسلامية ، غرض كبير من أغراض القصة القرآنية . والقصة القرآنية وهى تتناول هذا الغرض الدينى الكبير تستخدم الأسلوب التصويرى حيث تعرض المبدأ الاعتقادى فى صورة متحركة ، مرتبطا بالموقف وبدرجة الصراع ، فيؤثر فى الحياة والناس ، فيبعث الحياة فى قلوب الناس ويوقظ فيهم حركة العقل لعلهم يتعظون . والقصة تمتاز بالقدرة على تصوير نواحى الحياة المختلفة وعرض الشخصيات بما تحمله من اتجاهات ومبادئ وقيم فتؤدى إلى التجاوب مع الخيِّر منها ، والنفور من الشرِّير . ومن ثمَّ ينغرسَ فى النفوسِ المبدأ الاعتقادى وتتجاوب القلوب مع جمال العبرة وروعة الموعظة .

ثالثًا : تأييد الرسول وتسليته وإيناسه .

تلقى رسول الله ﷺ الوحى ، وهو الأمى الذى لا يعرف القراءة ولا الكتابة . وأُمِر بالقراءة . ﴿**اقْرأْ بِاسْمِ ربِّك الَّذى خلَق**﴾ . ولقد أجاب الرسول على الوحى بقوله . مَا أَنَا بقارئ إيحاءً

---

(١) سورة الأحقاف آيات ٢١ - ٢٣ .

بعجزه عن التلقى عن طريق القراءة . ولقد كانت الأمية هذه سببا فى انصراف الناس عن تلبية الدعوة .. لقصور عقلهم وضآلة تفكيرهم ، وسيطرة الجاهلية على مشاربهم ومنازعهم ، وطمس الوثنية لبصيص النور الذى يمكن أن يجاهد فيهديهم .

وقد يرى البعض أن ثمة تعارضًا بين « اقرأ » و « ما أنَا بقارئ » . ذلك أن الرسول حين تحدث أخذ بالأسباب البشرية على حين جاء الأمر الإلهى « اقرأ » أخْذًا بالأسباب العلوية الإلهية .

(أى يا محمد أنت ستقرأ ، ولكنى لن أرسلك إلى معلم ، أو إلى مدرسة لتتعلم فيها القراءة ولكنك ستقرأ باسم ربك . أى العلم الذى سيأتيك هو منْ الله سبحانه وتعالى وهو علم يحيط بعلوم البشرية كلها ، ولكنه لا يحتاج منك إلى أن تتعلم القراءة والكتابة لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سيعلمك مالم تعلم[١]) .

فمحمد لم يكن كاتبا أو قارئًا ، ولم يعرف أنه اتصل بأحد يعلمه . أو يخبره بأخبار الأمم السابقة مما يعنى أن القصص القرآنى الذى يتناول ذلك كله إنما هو وحى يوحى ، ولقد نزل بلسان عربى مبين .

ولقد أوردت القصص القرآنية أصل الخلق ، ورجعت فى الزمان بعيدًا حيث سوَّى الله آدم وخلقه من طين . ورسول الله يتلقى ، ويخبر الناس ، ويمسك فى يده دليل الوحى . فكيف له وهو الأمى أن يعرف كيف خلق الله الكون ؟ وكيف خلق الله آدم ؟ .

---

(١) من حديث للشيخ الشعراوى . مجلة اليقظة عدد ١٩٨٥/١٢/١٩ ص ٢٢ .

قال تعالى ﴿قُلْ إنَّما أَنَا مُنْذِرٌ ومَا مِنْ إلَه إلاَّ الله الواحِدُ القَهَّار . ربُّ السَّموات والأرْضِ ومَا بينَهُما العزيزُ الغَفَّار . قُلْ هُوَ نَبأٌ عَظِيم . أَنْتُم عنْه مُعْرِضُون . ما كَان لِى منْ عِلْم بالملأِ الأَعْلى إذْ يختصِمُون . إنْ يُوحَى إلَى إلاَّ أنَّما أنَا نذيرٌ مُبين . إذْ قَالَ ربُّك للملائكةِ إنِّى خالقٌ بشرًا مِنْ طِين . فإذَا سوَّيتُه ونَفَخْتُ فِيه منْ رُوحِى فقعُوا له سَاجدين . فَسَجَد الملائكةُ كلّهُم أجمَعون . إلاَّ إبْلِيسَ أَبَى واستكْبَر وكَانَ منَ الكَافِرين﴾[1] .

تسجل الآيات على كفار قريش كما سجّلت على الأمم السابقة ، الغفلة ، والجحود وتبين أن الرسول لم يكن له علم باختلاف الملائكة فى شأن خلق آدم لولا الوحى المنزل على الرسول . (قال ابن جزى : والقصد الاحتجاج على نبوة محمد ﷺ . لأنه أخبر بأمور لم يكن يعلمها قبل ذلك . والإشارة إلى اختصام الملائكة هو ما جاء فى قصة آدم حين قال تعالى لهم .. ﴿إنِّى جَاعلٌ فى الأرْضِ خليفةً﴾ حسبما تضمنته قصته[2] .

وسورة « ص » مكية تعالج أصول العقيدة ، فتحدثت عن الوحدانية وإنكار المشركين ، ثم تناولت قصص بعض الرسل الكرام ، تسلية للرسول وإيناسًا له ، كغيرها من السور التى ورد بها قصص القرآن .. فهى تؤنسه مما يقوم به الكفار من استهزاء وتكذيب ، وتخفف عنه الآلام والأحزان ، فتذكر قصص أنبياء أمثال داود وسليمان وما جمع لهما الله من الملك والنبوة ، وما حدث

---

(١) سورة ص آيات ٦٥ـ ٧٤ .
(٢) صفوة التفاسير جزء ٣ ص ٦٥ .

لها من فتنة وابتلاء وكذلك قصة النبي أيوب عليه السلام وابتلائه ومعاناته الشديدةمن المرض .. وغير ذلك ، مما توضحه القصص ، من أن لله سنة فى ابتلاء أنبيائه وأصفيائه . وإلاَّ فكيف يعرف الحق ؟ إن الخير لا يتحقق إلا بمعاناة وآلام وتطهير للنفوس .

إن القصص القرآنى فيه إيناس صَاحَب الرسالة المحمدية بأخبار إخوانه من الرسل الكرام . فلقد كانت هذه الأخبار لتعلم إلاَّ لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها ، ولكنه تلقاها وحيا مرسلاً .

قال تعالى وهو يذكر قصة مريم ويؤكد على تلقى الرسول للوحى ليثبت فؤاده . **﴿وَمَا كُنْتَ لدَيْهم إذْ يلْقونَ أقْلاَمَهم أيُّهم يَكْفُل مريمَ ، ومَا كُنْتَ لَدَيْهم إذْ يختَصِمُون﴾**[1] .

وقال تعالى فى خبر موسى وقصته **﴿وَمَا كُنْتَ بجَانِبِ الطُّور إذْ نَادَيْنا ولكِنْ رحمةً منْ ربِّك لتُنْذرَ قومًا مَا أتَاهم منْ نَذِير مِنْ قَبْلِك لعلَّهم يتذكَّرُون﴾**[2] .

والقصص القرآنى ذاته فيه من مظاهر الإعجاز الكثير ، وهو إعجاز إخبارى عن أمم سابقة جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب إذ هو النبى الأمى الذى لم يشاهد الوقائع ولم يقرأها . فكانت القصص تثبيتا له ، وتأنيسًا . والقرآن الكريم وهو يعرض فى قصصه أحداث الأمم السابقة ، يهدف من ذلك إلى إبراز أغراض دينية متعددة كالعبرة ، والتوحيد ، والتسلية ، والتوجيه ولنأخذ نموذجًا يتمثل فى قصة صالح وثمود .

---

(١) سورة آل عمران آية ٤٤ .

(٢) سورة القصص آية ٤٦ .

قال تعالى . ﴿وَإِلَى ثمودَ أَخَاهم صالحًا قَالَ يَاقَوم اعبُدُوا الله مَالكُم منْ إلهٍ غَيْرُه . قَدْ جَاءَتْكم بيّنةٌ منْ ربِّكم هَذِه نَاقَةُ الله لكُمْ آيةً فذَرُوهَا تأْكل فى أرضِ الله ولاَ تمسُّوها بسُوءٍ فيأخُذَكم عذابٌ أليم . واذْكُروا إذْ جعَلَكم خُلَفاءَ منْ عَادٍ وَبوَّأَكُم فى الأَرْضِ تتَّخِذُونَ منْ سُهُولِها قُصُورًا وتَنْحِتُون الجبالَ بيوتًا فاذْكرُوا آلاءَ الله ولا تعثُوا فى الأرضِ مُفْسِدين . قَالَ الملأُ الذينَ استكْبَرُوا منْ قَوْمِهِ للَّذين استُضْعِفُوا لِمَنْ آمَن مِنْهم أتَعْلَمُون أنَّ صالحًا مُرسلٌ منْ ربِّه قالُوا إنَّا بمَا أرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُون . قَالَ الذينَ استَكْبَرُوا إنَّا بالَّذِى آمنْتُم به كافِرُون . فَعَقَروا النَّاقَة وعَتَوْا عنْ أمْرِ رَبِّهم وقَالُوا يا صالحُ ائْتِنَا بِما تَعِدُنا إنْ كنْتَ مِنَ المرسَلِين . فَأخَذَتْهُم الرجْفَة فأصبَحُوا فى دارِهم جَاثِمين . فَتَوَلَّى عَنْهُم وقال يا قَوم لقَدْ أَبْلَغْتكم رسالة رَبِّى ولكِن لا تحبُّون النَّاصِحين﴾[1]

والآيات الكريمة تبين موقف المعاندين من صالح ، وهو موقف يواجهه كل نبى ورسول ومن ثم يضحى للإيناس والعبرة والتسلية للرسول ، دورها الفعَّال المساند له ، والقصة تبدأ بدعوة صالح لقومه بعبادة الله وحده لا شريك له ، وتوحيده ، وكعادة المعاندين طلبوا معجزة خارقة حتى يصدقوا صالحًا ، فأخبرهم صالح بأن المعجزة هى ناقة الله ، وقد أضافها إلى الله تشريفا وتذكيرًا بالمعجزة . ومجال المعجزة أنها خلقت بلا واسطة ، ومن ثم كانت حياتها مغايرة لحياة النوق الأخريات . حيث طلب صالح من قومه أن يتركوها تأكل من رزق الله ، . وذكرهم صالح بنعم الله عليهم

---

(١) سورة الأعراف آيات ٧٣ ـ ٧٩ .

حيث أسكنهم أرضًا بنوا فيها القصور الشاهقة ، ونحتوا من الجبال سكنهم . وواجب القوم عندئذ أن يشكروا الله على ما تفضل عليهم من نعم والبعد عن الفساد فى الأرض . وانقسم الناسُ إزاء دعوة صالح إلى قسمين . قسم مستكبر ، لم يصدق بنبوة صالح ، وهم أشراف القوم وعليتهم وقسم مستضعف آمن به ، وصدّقوا بدعوته . واعتدى الكافرون على الناقة فعقروها وتحدوا صالحًا أن ينزل بهم العقاب الذى وعدهم به إن فعلوا ذلك . ولأنهم فى هزئهم وسخريتهم وكفرهم وضلالهم قد بلغُوا المدى ، فلقد حقَّت عليهم الغضبة الإلهية . فأخذتهم صيحة من السماء فهلكوا ، وجاءت كلمة «جاثمين» لتصور موقفهم أروع تصوير . فلقد ماتوا وهم ملتصقون بالأرض ، على ركبهم ووجوههم كم يجثم الطائر[1] .

ولقد أدبر عنهم صالح بعد هلاكهم ومشاهدتهم ، وقال متفجعا ، لقد بلغتكم الرسالة ، ودعوتكم إلى التوحيد وحذرتكم عذاب الله ، ولكنكم أبغضتم ناصحيكم فاستحققتم العذاب .

والقصة فيها كل أغراض القصة القرآنية وأسلوبها فى الحكاية عن أخبار الأمم السابقة لتسلية الرسول . والقصة تكشف عن أسباب هلاك ثمود . ولقد جاءوا بعد قوم عاد . ثم طويت صفحتهم بعد ما أخذتهم الرجفة لبغيهم وظلمهم ، فأصبحوا أثرًا بعد عين .

فالمحور الأساسى الذى تدور حوله القصة هى دعوة الرسول إلى الله ، ثم إعراض قومه عنه ، وتحديهم لهذه الدعوة الجديدة ، ثم

---

(١) صفوة التفاسير الجزء الأول ص ٥٥٥ .

إبراز سوء العاقبة . إنها تمثل صراعًا بين الخير والباطل ، والإيمان والكفر .

والغرض الذى تتضمنه القصة هو تسلية الرسول وإيناسه ، فهو نفسه يدعو قومه إلى الإسلام ، وانقسم قومه قسمين ، مستضعفين يؤمنون به ، ومستكبرين كافرين . والمغزى أن الرسول ليس بدعًا بين الرسل ، فالكل يدعو إلى الله والكل يواجهون بالتحدى ، وليس على الرسول إلا الصبر والتحمل والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة . كما تتضمن أيضا تحذير المكذبين لرسول الله ﷺ ، والمتحدِّين لدعوته أن ينزل عليهم العقاب الذى نزل على ثمود .

والقصة تثير الرهبة والخوف ، كما تثير الإحساس بالأمان فى كنف الدين .

ولقد جاء التصوير فى القصة مبدعًا ، ومعجزًا ، فتصوير الفاجعة تصوير موجز وموحٍ ليعطى لنا عمق الإيناس للرسول ، وتحذير المتحدّين والاعتبار بما سبق للأمم الماضية . وهو يبقى فى النفس تأثيرًا قويا ، يجعل القلب يرتجف وهو يعلم مصير صاحبه الظالم الكافر الذى تسيطر عليه نوازع الشر ، كما يطمئن النفس المؤمنة إلى المصير الطيب الذى وعدت به .

وفى هذا المجال فإن هذا الغرض الدينى الذى تبرزه القصة القرآنية يتضمن أن الله ينصر أنبياءه ورسله فى نهاية الصراع والتحدى وأنه يهلك المكذبين الضالين والعصاة الكافرين .

وفى ذلك تأييد للرسول وتثبيت له . وتأثير فى نفوس الأتباع الذين يعانون من جبروت الكافرين وظلمهم ، فيقبلون على الدعوة

ويؤمنون بها دون خوف ولا وجل .

وتبعا لهذا جاءت قصص الأنبياء مجتمعة ومتفرقة مختومة بمصارع المكذبين . ويصبح تكرار القصص تأكيدًا على هذا الغرض وتثبيتًا للرسول ﷺ قال تعالى ﴿وكُلاًّ نقصّ عليْك منْ أَنباءِ الرسُلِ مَا نُثبتُ بِهِ فؤادَكَ﴾ .

وقال تعالى فى مجال ما حدث للرسل . ﴿ولَقَدْ أرسلْنَا نُوحًا إلى قَومِهِ فَلَبِثَ فِيهم أَلْفَ سَنَةٍ إلاَّ خَمْسِين عامًا ، فأخَذَهُم الطوفَانُ وهُم ظَالِمون . فأنْجَينَاه وأَصْحابَ السفينةِ وجَعَلْناهَا آيةً للعَالَمِين﴾ [1]

وقال تعالى . ﴿ولُوطًا إِذْ قالَ لقَومِهِ إنّكم لتأْتُون الفَاحشةَ مَا سَبقكم بهَا منْ أَحَدٍ مِنَ العالمِين . أَإِنَّكم لتأْتونَ الرِّجَالَ وتقطعون السَّبيلَ ، وَتأْتُونَ فى نَادِيكم المنْكَر فما كَان جَوابُ قوْمِهِ إلاَّ أَنْ قَالُوا ائتِنَا بِعَذابِ الله إنْ كنْتَ مِنَ الصَّادِقِين﴾ [2]

وأنزل الله عليهم عقابه ، فقال تعالى فى نهاية القصة . ﴿إنَّا مُنْزِلُون علَى أهْل هَذِهِ القريةِ رِجْزًا من السَّماءِ بمَا كانُوا يفْسُقُون﴾ [3]

وهكذا يقف الله مع أنبيائه ورسله يؤازرهم وينصرهم وينزل غضبه بالمكذبين الجاحدين . إن الخير والحق ينتصران ولو طال أمد الشر .

رابعًا : الدعوة إلى الخير وحسن المعاملة والعفّة .

لا شك أن القصة القرآنية وقد قامت بتأييد الرسول ﷺ

---

(١) سورة العنكبوت آية ١٤ ، ١٥ . (٢) سورة العنكبوت آية ٢٨ ، ٢٩ .

(٣) سورة العنكبوت آية ٣٤ .

وإيناسه فى وحشته وتسليته ، فإنها أيضا أدت دورًا هاما للتسْرية عن المسلمين ، وتخفيف الضغط عنهم والناشىء من قسوة المجتمع الجاهلى عليهم ، فقد كانوا يلاقون أشد أنواع التعذيب وأزرى أنواع المعاملة ، حتى لقد بلغ الأمر بالمسلمين أن طلبوا من الرسول أن يستنصر لهم ويدعو أن يرفع عنهم هذا العذاب .

فالقصة القرآنية قامت بدورها الفعَّال فى تخفيف الضغط العاطفى عن الرسول وعن المسلمين تثبيتًا لأقدامهم وتقوية لعزائمهم .

ومن ثم جاءت القصة القرآنية لترسم النموذج الكامل للمعاملة الطيبة والسلوك النموذجى الذى يجب أن يتحلى به الإنسان المسلم . فبينت أن دعوة الأنبياء دعوة إلى الخير ، وإلى حسن التعامل ، وإصلاح العمل ، وتقويم النفوس وتهذيب الأخلاق ، وعمارة الأرض ، والتحذير من إفساد الحياة وتخريب النُفُوس .

وإذا وردت هذه القيم الأخلاقية كلها ضمن قصة ، تغلغلت إلى النفس وتمكنت منها . وفى قصة « شعيب » مع قومه نموذج لهذه الدعوة الكريمة إلى الخير والصلاح . فقد دعاهم إلى التوحيد . وإلى الوفاء فى الكيل والميزان ، وإعطاء كل ذى حق حقه والبعد عن الفساد .

قال تعالى **﴿وإلَى مَدْينَ أخَاهُم شُعَيبًا قَالَ ياقَوْمِ اعبدُوا الله مَالَكُم منْ إلهٍ غيرُه قد جَاءتْكم بينَةٌ منْ ربِّكُم فأَوْفُوا الكَيْل والميزانَ ولاَ تبخسُوا النَّاسَ أشْياءَهم ولاَ تُفْسِدوا فى الأَرضِ بعْدَ إصلاَحِها ذلِكُم خيرٌ لكُمْ إنْ كنتم مؤْمِنين . ولا تقْعُدوا بكلِّ صراطٍ تُوعِدون**

وتَصُدون عنْ سبيل الله منْ آمَنَ به ، وتبْغُونَها عوجًا ، واذْكُرُوا إذْ كنْتم قَلِيلاً فكثَّركم ، وانْظُرُوا كَيفَ كانَ عاقبَةُ المفْسِدِين﴾ [١]

ولقد تضمنت القصة حوارًا يدور بين النبى الداعية والقوم المبعوث إليهم ودار الحوار حول التوحيد ، ثم أنواع من الخير ، وحسن المعاملة كإيفاء الناس حقوقهم ، والأمانة ، وعدم الجلوس فى الطرق لتخويف المؤمنين وتهديدهم بالقتل ، (قال ابن عباس : كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون منْ أراد المجىء إليه ويصدونه ويقولون . إنه كذاب فلا تذهب إليه ، على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ [٢]) .

ولم يَيأس شعيب من قومه فهو حريص على إصلاح الفساد فى نفوسهم ومعاملاتهم فكرر الدعوة ولكنهم قاوموه وأصروا على المقاومة وعلى الشر . فحق عليهم العذاب . قال تعالى . **﴿قالُوا ياشُعَيب أَصلاَتكَ تأمُرُكَ أنْ نتركَ مَا يعبُد آباؤُنا ، أوْ أنْ نفْعَل فى أمْوالِنا ما نَشَاء إنَّكَ لأنْتَ الحلِيمُ الرَّشِيد . قَالَ يَاقَوم أرأيْتم إنْ كنتُ علَى بيِّنةٍ منْ رَبّى ورَزَقَنى مِنْه رزقًا حَسنًا ، وما أُرِيدُ أَنْ أخَالِفَكُم إلى ما أنْهاكُم عَنْه إنْ أُرِيد إلاَّ الإِصْلاحَ ما استطعْتُ ومَا توفِيقِى إلاَّ بالله علَيه توكَّلْت وإِلَيْه أُنيب﴾** [٣]

وفى هذه الآيات ضرب المثل بالقدوة . ففى مجال النصيحة وحسن المعاملة تصبح القدوة مفتاحًا إلى القلوب المغلقة ، والنفوس المطموسة . ومن ثم فقد وضح شعيب لقومه أنه لا يعقل أن ينهاهم

---

(١) سورة الأعراف آية ٨٥ـ ٨٦ . (٢) صفوت التفاسير الجزء الأول ص ٤٥٨ .
(٣) سورة هود آية ٨٧ـ ٨٨ .

عن شىء ويرتكبه وإنما هو يأمرهم بما يأمر به نفسه . وهو حين يأمرهم بالتوحيد وبترك البخس فى أموالهم وموازينهم إنما يريد إصلاح أمرهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ثم حذرهم من العذاب ، وضرب لهم نماذج من الأمم السابقة حق عليهم العذاب . كقوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ﴿وَمَا قَوْمُ لوطٍ منْكم بِبَعِيد﴾ وتمادى القوم وظلوا على سوء حالهم وفسادهم وضلالهم ﴿وَأَخَذَتْ الَّذِين ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فى دِيَارِهم جَاثِمين﴾ وهكذا أخذت صيحة العذاب القوم لبعدهم عن الدين وابتعادهم عن المعاملة الطيبة ، والأمانة .

والآيات تبين مراعاة الأمانة وضرورة توفرها فما يتصل بالشئون المالية ، خاصة إن كانوا قوما للمال فى حياتهم دور كبير ، وهم فى ذلك يشبهون أهل مكة وسراتها من التجار والأثرياء فى عهد رسول الله . وكانوا يتعاملون فى أموالهم بالبخس والربا ، فكان إيراد هذه القصة تسرية للمسلمين عن سوء المعاملة ، وبيانا للمسلك المالى الخاطىء الذى يسلكه كفار قريش ، فشئون المال لها صلة وثيقة بالدين .

ولقد ضرب شعيب المثل والقدوة . ذلك لأن الاستجابة إلى من يدعو إلى الخير تقتضى أن يكون الداعى عاملاً به مستجيبا له .

وإذا ما نظرنا إلى القرآن وهو يسوق قصة (يوسف) عليه السلام نجد أن القصة تحتوى على عظات بالغة ، كما أنه يدعو وبالبراهين الساطعة على وجوب الاعتصام بالعفاف والشرف والأمانة . ففى جزء من أجزاء القصة الرائعة ، يتواجد يوسف مع

امرأة العزيز فى موقف ، قلما ينجو منه إنسان إلاَّ منْ عصم الله . موقف يوضح صراع الخير مع الشر ، الجمال مع القبح ، الرفعة مع الدنية ، الإنسانية مع الحيوانية ، الأمانة مع الخيانة ، العفة مع الابتذال .

قال تعالى ﴿**وَرَاوَدَتْه التى هُو فى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِه وَغَلَّقتْ الأبْوابَ وقَالَتْ هيْتَ لكَ قالَ معاذَ الله إنَّه رَبِّى أحْسَنَ مَثْواى إنَّه لا يُفْلحُ الظَّالمُون . ولقَدْ همَّت به وهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أنْ رأَى بُرهَانَ ربِّه . كَذَلِك لنصْرفَ عنْه السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إنَّه مِنْ عبادِنَا المخْلَصِين . واستَبقَا البَاب وقدّتْ قميصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلفَيَا سيِّدَها لَدَى البَاب قالَتْ مَا جزاءُ منْ أرادَ بأَهلِكَ سُوءًا إلاَّ أنْ يُسجَنَ أوْ عذابٌ ألِيم . قَالَ هِي راوَدْتنِى عنْ نَفْسِى وَشَهِد شَاهِدٌ مِنْ أهْلِهَا إنْ كانَ قَميصُه قُدّ مِنْ دُبُر فكذَبتْ وهُوَ منَ الصَّادِقِين . فلمَّا رأى قَميصَه قُدَّ منْ دُبُر قَالَ إنَّه منْ كَيْدِكُنَّ إنَّ كيْدَكُن عظيم . يُوسُف أعرضْ عنْ هذَا واستْغفِرى لذَنْبك إنَّك كنْتِ منَ الخَاطِئين**﴾ [١]

الآيات الكريمات تحكى قصة النفس البشرية حين يسيطر عليها الهوى ويجنح بها إلى مهوى الإثم . إنَّها اللحظة ، التى تبدو فيها الأمور مهيأة للفعل وللسقوط فى الفحشاء ، ولدوى المرأة وهى تلح فى همس ونعومة ومخادعة . فامرأة العزيز تجملت ودعته وأحكمت أسبابها . ويوسف عليه السلام يرتجف مستعيذاً بالله من هول الفعل . (قال أبو السعود : وهذا إشارة (معاذ الله) إلى أنه منكر

---

(١) سورة يوسف آية ٢٣ ـ ٢٩ .

هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، لما أراه الله من البرهان النيّر على ما فيه من غاية القبح ونهاية السوء[1] .

وانظر كيف يقف يوسف موقف الكرام الذين تجسّدت فيهم مكارم الأخلاق جميعها . يقول يوسف : سيدتى كيف أقدم على هذا الفعل الشنيع ؟ كيف أخون سيدى ؟ كيف أنتهك عرضه الكريم : وهو الذى ربَّانى وأحْسَن رعايتى ؟ ولكنَّ المرأة تفنَّنت فى أساليب الإغراء وتوسلت بكل أسلحة الأنثى حتى كادت تنشب عواطفها فى قلبه ، فى قوة ، وتصميم . ولكن الله حفظ يوسف وعصمه . يقول أبو السعود وهو يوضح نوع الهمّ الذى قام به يوسف (إن همّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ميْلا جبليًا لا أنه قصدها قصدا اختياريا ، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين . وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه تسجيلا محكما[2] لقد صرف الله عن يوسف الزنا ، ومنحه من موجبات العفة والعصمة ما جعله بعيدًا عن هذا الفعل الذميم .

والآيات الكريمات تصور حالة التغير والتبدل التى تعترى المرأة فى مثل هذه المواقف إذا ما جابهتها المفاجأة . إنها تتحول وبمهارة فائقة لتقلب الوضع ، ليصبح المظلوم ظالمًا والظالم مظلومًا ، والبرئ متَّهما . ولكن الزوج يدرك الحقيقة فيطلب من يوسف كتمان الأمر ويصف ما فعلته زوجته بأنه من كيد النساء .

---

(١) صفوة التفاسير جزء ٢ ص ٤٦ .

(٢) صفوة التفاسير جزء ٢ ص ٤٧ .

وهنا يتبدى لنا أن العزيز قليل الغيرة ممن أرادت خيانته وتدنيس فراشه بالإثم والفجور .

يقول سيد قطب فى الظلال . (وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية فى المجتمع الجاهلى ، رخاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، فيلتفت العزيز إلى يوسف البرىء ويأمره بكتم الأمر وعدم إظهاره لأحد ثم يخاطب زوجه الخائنة بأسلوب اللباقة فى مواجهة الحادث الذى يثير الدم فى العروق . ويرى . أن تلك صورة من صور الترف والحضارة المادية التى كان عليها أهل القصور[1]) .

لقد قوبلت دواعى الغواية بدواعى العفاف . مقابلة صورت من القصص الممتع جدالاً عنيفًا بين جند الرحمن وجند الشيطان ووضعتها أمام العقل المنصف فى كفتى ميزان .

لقد جاءت القصة مزيجا حلوا سائغا شرابه يخفف على النفوس أن تجرع الأدلة العقلية ويرفه عن العقول باللفتات العاطفية .

والقصص القرآنى الكريم وهو يعرض قصص « الفاحشة » لا يعرضها لإثارة تلذذ القارئ أو السامع بمشاعر الجنس المختلفة الانحراف والمشارب ، كما يفعل أصحاب القصص فى العصر الحديث . فلحظة الجنس لا تستحق التوقف عندها فهى ليست الحياة وإنما وسيلة من وسائل الحياة ، إنه عارض وينتهى فاسحًا المجال للتصور الإيمانى الكبير للكون والحياة والإنسان .

---

(١) فى ظلال القرآن سيد قطب جزء ١٢ ص ٢٣١/٢٣٢ .

إن القصة هنا تدعو إلى إقامة مجتمع نظيف مُبرّأ من العلل ، دون فتنة أو انحراف . فالتفنن فى عرض لحظة الجنس إسراف فى المقادير بالنسبة لما يلزم للحياة البشرية . وتحويل للوسيلة حتى تصبح غاية .

(تلك قاعدة مرعية فى كل قصص القرآن عن (الفاحشة) ، وهى كذلك ينبغى أن تكون مرعية فى كل القصص الإسلامى . إن الإسلام لا يحرم وصف المشاعر الجنسية ، نظيفة كانت أو غير نظيفة ، ولا يحرم وصف لحظة الهبوط والضعف . ولكنه يعرضها كما ينبغى أن تعرض ، لحظة ضعف لا لحظة بطولة ولحظة عابرة يفيق منها الإنسان إلى ترفعه الواجب ، ولا يظل دائرًا فى حلقتها المرتكسة على الدوام[1] .

خامسًا : أصل الأديان واحد ووسائل الدعوة واحدة .

الدين لله ، والله وحده هو الذى يهدى خلقه إلى الطريق الصحيح ، فالإنسان بما ركب من مادة وروح ، معرض للخطأوالخطيئة ، . فهو حين يسفل تسيطر عليه المادة ، وحين يشف يصبح كائنًا روحانيا ، أقرب إلى الشفافية منه إلى الجمود والثقل .

والقرآن الكريم ، يتحدث عن الإنسان ، منذ أن خلق وكيفية خلقه جنينا فى بطن أمه ثم استخلافه فى الأرض وعمارته للكون ، واستحقاقه للثواب والعقاب . والقرآن يرشد الإنسان إلى مواقع

---

(١) منهج الفن الإسلامى . محمد قطب . ص ١٦١ ـ ١٦٢ دار الشروق .

الخير ويدعوه إليها وعن وجوه الشر ويحذره منها . هذا الإنسان المختار هو الذى صنعه الله على يده ونفخ فيه من روحه وسواه خلقا آدميا كريمًا وأمر الملائكة أن تسجد له إلى أن وسوس الشيطان . فنزل إلى الأرض من جنة الله الخالدة .

وحبّ البقاء طبيعة فى كل حى وهو فى الإنسان طبيعة وإرادة معا ، طبيعة تدفعه إلى حفظ نوعه والإبقاء على ذاته أطول عمر ممكن ، ففى ذلك دعم لبقاء نوعه وتوكيد لحفظ هذا النوع ، وحب البقاء فوق ذلك هو إرادة تخلّقت فى الإنسان من اتصاله بالحياة واختلاطه بالأحياء واشتباك مصالحه بهم ، وانفساح آفاق آماله بينهم وامتداد آثاره فيهم .

ولقد كشف القرآن الكريم عن هذه الإرادة الصارخة فى الإنسان إلى حب الحياة والتعلق الشديد بها فقال تعالى وهو يتحدث عن طبيعة اليهود فى حياتهم مخاطبا الرسول لتوعيته وتحذيره .

﴿وَلَتَجِدَنَّهُم أحْرَصَ النَّاسِ علَى حَيَاةٍ ، ومِنَ الذّينَ أشْرَكُوا ، يَوَدّ أحدُهم لَوْ يُعَمّر ألْفَ سَنَة وَمَا هُو بمزَحْزِحِه منَ العَذَاب أنْ يُعَمر﴾[1]

وفى كلمة حياة ، وقد جاءت نكرة ، إشارة معجزة على أن هذه الحياة التى يحرص عليها اليهود أشد الحرص هى حياة تافهة يعيش فيها صاحبها أشبه بالحيوان بلا عقل ولا قلب ، إنها حياة مجرد حياة ، يتحرك فيها الجسد بلا إدراك ولا وجدان[2] .

---

(١) سورة البقرة آية ٩٦ .

(٢) الإنسان فى القرآن الكريم ص ٢٢٥ .

ومتاع الحياة الدنيا قليل . قال تعالى ﴿**وَمَا الحَيَاةُ الدّنيَا إلاَّ مَتَاعُ الغُرُور**﴾[1]

وتختلف نظرة المؤمنين بالله واليوم الآخر إلى الدنيا وتعاملهم معها عن أهل الضلال ، فهم لا يفزعون من الموت ولا يفرون منه بل يقبلون عليه راغبين فيه فى مواقف الدفاع عن دين الله والاستشهاد فى سبيله قال تعالى ﴿**إنَّ الله اشْتَرى منَ المُؤمِنِينَ أنْفُسَهَم وأمْوالَهم بأنَّ لَهُم الجَنَّة يُقَاتِلُون فى سَبِيل الله فيقْتلُون وَيقْتَلُون وعْدًا عَلَيه حقًّا فى التَّوْراةِ وَالإنجيلِ والقُرآن ، وَمنْ أَوْفَى بعَهْده مِنَ الله ، فَاسْتبشِرُوا ببَيْعِكمُ الذّى بَايَعْتُم بِه وذَلِكَ هُوَ الفَوْز العَظِيم**﴾[2]

وحين يختل التوازن فى الإنسان بأن يسيطر الجانب المادى الحياتى على عقله ووجدانه وتفكيره وسلوكه ويصرفه عن عبادة الله ، ووحدانيته ، ويرمى به إلى مهاوى الضلال ، فتنطمس الفطرة السليمة ، وتظلم النفس الإنسانية وتتحول الحياة إلى ساحة وثنية ، ليتصارع البشر حول المادة ويعبدون المادة التى يصنعونها . ويعلو الضجيج الوثنى وتتوارى كلمة الله فى قلوب المؤمنين المرتجفين بإيمانهم .. حين يحدث ذلك يرسل الله إليهم رسله بالهداية ودين الحق . وكل الأديان ، التى نزلت على رسل الله إلى خلقه إنما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

ولكنهم بما جبل فيهم من المعاندة والمكابرة ، تأخذهم العزة بالإثم فيقبضُون أيديهم عن هذه اليد الكريمة الممدودة لهم بالنجاة ،

---

(١) سورة آل عمران آية ١٨٥ .

(٢) سورة التوبة آية ١١١ .

وعندئذ يحيق عليهم عذاب الله ، فيسوء مصيرهم ، وتحل عليهم لعنة الله .

ولهذا كله كان من أغراض القصة القرآنية بيان الأصل المشترك بين الإسلام كدين ختم به الله الرسالة إلى البشر وبين الأديان جميعًا . فالدين لله وحده . ولقد أبرزت القصة القرآنية هذا الغرض إبرازًا قويا وواضحًا فى مجال رسالات السماء ، وصراع الرسل مع أقوامهم لهدايتهم إلى التوحيد طريق النجاة من العذاب .

قال تعالى ﴿**وَمَا أَرْسَلْنا منْ قَبْلِك منْ رَسُول إلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّه لاَ إِلَه إلاَّ أنَا فاعْبُدون**﴾[1]

وقال تعالى ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الحيَاةَ الدّنيَا . والآخِرَة خَيْرٌ وأَبْقَى . إنَّ هَذا لفِى الصُّحفِ الأُولى . صُحُف ابرَاهِيم ومُوسَى**﴾[2]

وفى قصة هود إلى قومه نموذج إلى أن الدين واحد ، وإلى أن دعوة الرسل إلى أقوامهم واحدة .. وما « هُود » إلا نموذج واحد لعشرات الأنبياء والرسل الذين حملوا الدعوة إلى الله .

ولقد أبرزت القصة القرآنية أن وسائل الأنبياء فى الدعوة واحدة وأن استقبال أقوامهم لهذه الدعوة متشابه . فضلا عن أن الدين من عند إله واحد وأنه قائم على أساس واحد . وتبعا لذلك كانت ترد قصص كثيرة من الأنبياء ، مكررة فيها طريقة الدعوة[3] .

قال تعالى ﴿**وَإِلَى عادٍ أخَاهَمُ هُودًا قَالَ يَاقوم اعبُدُوا الله مَالكُم**

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٥ . (٢) سورة الأعلى آيات ١٦ - ١٩ .

(٣) التصوير الفنى فى القرآن ص ١١٦ طبعة بيروت .

مِنْ غَيْرُه إنْ أَنْتُمْ إلاَّ مُفْتَرون . يَاقَومِ لا أَسأَلُكم عَلَيه أجْرًا إنْ أَجْرى إلاَّ علَى الذّى فطَرنى أفَلاَ تَعْقِلُون . ويَا قَومِ استَغْفِروا ربَّكم ثمَّ تُوبُوا إليه يُرْسِلِ السَّماءَ عليْكُم مدْرَارًا ويَزِدْكم قُوةً إلى قُوَّتِكم وَلاَ تَتَوَلّوْا مُجْرِمِين . قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنةٍ وَمَا نَحْنُ بتَارِكى آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِك ومَا نَحْن لَك بمُؤْمنين . إنْ نَقُولُ إلاَّ اعْتَراكَ بعضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إنِّى أَشْهَدُ الله واشهَدُوا أَنِّى برئٌ مِمَّا تُشْرِكُون . مِنْ دُونِه فكِيدونى جميعًا ثمَّ لاَ تُنْظِرُون . إنِّى توكَّلْت علَى الله ربِّى وربِّكم مَا مِنْ دابةٍ إلاَّ هُو آخِذٌ بناصيتِها إنَّ رَبِّى علَى صِراطٍ مُستَقِيم . فَإنْ تَوَلّوا فقَدْ أبلَغْتكم مَا أرْسِلتُ به إليكُم ويَسْتَخلِفُ ربِّى قومًا غيرَكم وَلا تَضُرونَه شيْئًا إنّ رَبى على كلِّ شيء حَفِيظ . ولمَّا جَاءَ أمرُنَا نجَّيْنَا هودًا والذّين آمَنُوا معَه برحمةٍ مِنَّا ونَجينَاهُم منْ عذابٍ غَلِيظ . وتِلكَ عادٌ جَحَدُوا بآياتِ ربِّهم وعَصَوا رُسُلَه واتَّبَعُوا أمْرَ كلّ جَبّارٍ عنيد . وأتْبِعُوا فى هَذِه الدّنيا لعنةً ويَوْمَ القيامةِ ألاَ إنَّ عادًا كفرُوا ربَّهم ألاَ بُعْدًا لعَادٍ قومِ هُود﴾[1]

ها هو هود عليه السلام يدعو قومه « عادًا » إلى عبادة الله . إنهم ارتكسوا إلى الوثنية واغتروا بقوتهم ومنعتهم ورزقهم الواسع ، وكذّبوا هودًا . وتبدأ الدعوة وهود أحد أفراد عاد ، ولكن الدعوة تنتهي وقد افترق عنهم حيث يقف الله مع المؤمنين ضد الكافرين . ولقد تودد إليهم داعيا إياهم إلى التوحيد . **﴿اعْبُدوا الله مالكم من إله غيره﴾** . وهي قولة واحدة جاء بها كل رسول ، كدعوة خالصة وصادقة لإخراجهم مما هم فيه . ويطلب هود من قومه أن يستغفروا

(١) سورة هود آيات ٥٠ ــ ٦٠ .

حتى يمن الله عليهم بالمطر . ولقد ردّ القوم عليه بأنه لم يأت ببينة ، ومن ثم فهم متمسكون بآلهتهم وكافرون بما يدعو إليه هود . وتبرأ هود من قومه ، وأشهد الله على ذلك ويشهدهم هم بأنفسهم على هذه البراءة كى لا تبقى فى أنفسهم شبهة . والإنسان يدهش لرجل فرد يقتحم قومًا غلاظًا . إنها طريقة الرسل أجمعين وهم يقتحمون أقوامهم ويتصارعون معهم بالحكمة والموعظة الحسنة (إن هذه الحقيقة التى يجدها صاحب الدعوة فى نفسه لا تدع مجالاً للشك فى عاقبة أمره ولا مجالاً للتردد عن المضى فى طريقه . إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة[1] .

إن أصحاب الدعوة إلى الله لابد أن يجدوا حقيقة ربِّهم فى نفوسهم حتى يستعلوا علىِ قوى الجاهلية الطاغية من حولهم .

إن الدعوة تبدأ من رسول جاء إلى قومه هو . يدعو فيها إلى عبادة الله وحده ، ويطلب من القوم التوبة ، والرجوع إلى الحق والابتعاد عن الفساد . ويواجه الرسول من قومه بالعناد والغلظة والفساد . فيتبرأ منهم الرسول ، بعد أن ييئس من إصلاحهم . ويحيق عذاب الله بالقوم ويصبحون عبرة وعظة لغيرهم .

وتلك هى الخطوط الرئيسية التى تتناولها القصة القرآنية فى مجال الوسائل التى يلجأ إليها الرسل فى دعوتهم . وهذه القصص القرآنية تدل على وحدة الدين ووحدة الوسائل .

سادسًا : الحث على العدل والبعد عن الهوى

أبرزت القصة القرآنية أهمية العدل فى سياسة الأمم والناس .

---

(١) فى ظلال القرآن جزء ١٢ ص ٩٨ .

ووصف الله نفسه بأنه الحكم العدل . وأكدت القصص على أن المقياس الحقيقى للحكم العادل هو إدراك الحق . وألا يكون للهوى سلطان فى الحكم ، ذلك أن الهوى جامح يؤدى إلى الشطط فى الأحكام ، واحتمال الابتعاد بها إلى الوقوع فى مظلمة الناس . ولابد لمن يقوم بالأحكام والتقاضى أن يكون عالمًا مؤمنا مدركا للحق بعيدًا عن الهوى . وأن يكون حكمه واحدًا فى حالتى الرضى والغضب ، ذلك أن الانفعال سريع التحول ، دائم التغير ، وهو أمر لا يتلاءم مع درجة العقل والحكمة التى يجب أن يتصف بها من يقف فى موقف إصدار الأحكام .

وحين تورد القصة هذا اللون من السلوك ، يكون له تأثير قوى فى المتلقى حيث إن المتلقى والمشاهد لمجريات التقاضى والمحاكمة ، يضحى واعيا تماما بكل حركة وبكل حكم بل وبكل إشارة ، وعينه مصوبة ، وسمعه مشدود مما يكون للإنفعال أثره القوى فى النفس .. من حيث تطهير المشاعر وإعلائها أو الانحطاط بها إلى مدارج لا يحق للنفْس أن تصل إليها .

وفى قصة « داود » نموذج لهذا الغرض الدينى الذى تتضمنه القصة القرآنية .

قال تعالى : ﴿**وهَلْ أتَاكَ نَبأُ الخَصْم إذ تسَوَّرُوا المحْرَابَ . إذْ دَخَلُوا عَلى داودَ ففزِعَ منهم قالُوا لا تخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بعضُنَا على بعضٍ فاحكُمْ بينَنَا بالحقّ ولاَ تشْطِط واهْدنَا إلى سَواءِ الصِّراط . إنَّ هَذَا أخِي له تِسْعٌ وتسعُون نعجةً ولى نعجةٌ واحِدة فقَالَ أكْفِلْنِيها وعزَّنِى فى الخِطَاب . قالَ لقَد ظَلَمَك بسُؤَالِ نَعْجتِك**

إلى نعاجه وإنَّ كثيرًا مِنَ الخلطَاءِ ليَبْغِى بَعْضُهم علَى بعضٍ إلاَّ الذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات وقليلٌ ما هُم وظنَّ داوُد أنَّما فتنَّاه فاستَغْفَر ربَّه وخرَّ راكعًا وَأَنَابَ . فَغَفرْنا لَه ذَلِك وَإِنَّ لَه عِنْدنَا لَزُلْفى وحُسْنَ مَآب . يَاداودُ إنَّا جَعَلنَاك خَلِيفةً فى الأرْضِ فاحْكُمْ بين الناسِ بالحقِّ ولا تتَّبع الهَوى فَيضِلَّكَ عَنْ سبيلِ الله إنَّ الذّين يَضِلون عنْ سَبيل الله لهُم عذابٌ شَدِيدِ بمَا نَسُوا يومَ الحِسَاب﴾ (١)

وفى هذه القصة يحسن التأكيد أولاً على أن داود كان نبيا وملكًا ، قويا وعزيزًا ، وكان يسوس ملكه بالحكمة والحزم معا ويقطع برأى حاسم ، ولقد بينت الآيات أن داود أوتى الحكمة وفصل الخطاب . ومن ثم كان هذا الموقف اختبارًا لداود فى حكمه وقضائه .

وبدئت الآيات بالاستفهام ثم بضمير المخاطب ، وهو ضمير يقصد به محمد ﷺ ، وهو من هذه الناحية يعتبر تسْلية وإيناساً للرسول ، والاستفهام قُصِد به إثارة الانتباه ، وتفتح المدارك وتهيئها لما يقال ، والتشويق إلى سماع هذا الموقف العجيب الذى حدث لداود .

إن داود يتعبد فى محرابه ، وتلك عادته ، فكان يخلو فيه ولا يدخل عليه أحدٌ حتى يخرج هو إلى الناس . ثم تأتى المفاجأة التى لم يتوقعها حيث فوجىء بخصمين يدخلان محرابه ففزع وأضمر فى نفسه شيئًا . وطمأناه بأنهما خصمان ، وبدأ الأول فعرض الخصومة .

---

(١) سورة ص آيات ٢١ ـ ٢٦ .

وأجاد الأول فى شرح مظلمته ، وهو يشير إلى الآخر ، وبين أن خصمه عنده تسع وتسعون نعجة ، (والنعجة يكنى بها عن المرأة) وأنه يملك واحدة ، وأراد خصمه أن يجعل نعجته تحت كفالته ، ويضيفها إلى ما عنده حتى يصبح المجموع مائة نعجة . (وانفعل داود حين سمع هذه المظلمة الصارخة ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا ولم يطلب إليه بيانا ولم يسمع له حجة ولكنه مضى يحكم بقوله ﴿**لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه**﴾ .. فعاتبه الله على ذلك ونبهَّه إلىَ ضرورة تثبت القاضى من حكمه وسماعه للخصم الآخر[1] .

والقصة هذه تتضمن ثلاثة أمور فى الإشارة إلى كل واحد منها تنبيه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل فى الأحكام .

أولا : أنه سبق إلى الحكم دون أن يستمع إلى الخصم ، وذلك قد يكون مدعاة إلى الظلم .

ثانيا : لم يكتف بالحكم فى القضية المعروضة ، ذات الظروف الخاصة والملابسات المحددة بل عمَّم الحكم . والقضاء يكون فى القضية المدروسة فقط ﴿**وإنَّ كثيرًا منَ الخلَطاء ليبْغى بعضهم على بَعْضٍ**﴾ .

ثالثا : الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة ، والحكم الظالم هو ما يقع تحت سلطان الهوى والشهوة . ومصدر الشر هو الأهواء ومن يتّبع أهواءه فيما يحكمون به ، يظلمون ، ويسنون قوانين

---

(١) صفوة التفاسير جزء ٣ ص ٥٥ .

ظالمة ، ويطبقونها تبعا لأهوائهم .

فإذا نهى الله نبيه داود عن ذلك ، فإنما ينهاه عما يؤدى إلى فساد الحكم ، وبهذا يتبين أن الحكم بالهوى مدخل إلى الظلم .

وذكرُ ذلك فى قصة من قصص القرآن يزيد المبدأ تبينا وتأكيدًا . ذلك أن ذكر أى موقف فى قصة ما يجعله يسرى فى النفوس ويدخل إلى الضمائر فيوقظها وينبهها .

وتصبح القصة القرآنية فى هذا المجال مرشدةً وهادية إلى أقوم السبل[1] .

سابعاً : تقويم المشاعر الإنسانية وتعديلها

بسط القرآن الكريم الحديث عن النفس الانسانية ، وبين أن عمل الانسان من خير أو شر إنما يرجع إلى النفس ، وإليها يكون الثواب والعقاب ، وللنفس حضورها فى الجنة والنار والثواب والعقاب ذلك لأنها ذات شأن عظيم فى سلوك الانسان وفى هديه وضلاله .

والنفس هى جوهر الانسان ولبابه ، وإليها وبها يكون صلاح الانسان أو فساده . فمن نفس الانسان توجد أنسام الطمأنينة والخير والراحة النفسية . ومنها أيضاً تثور الأعاصير المهلكة .

ولقد قسم القرآن الكريم النفس إلى أقسام ثلاثة : هى النفس المطمئنة وهى النفس التى تؤمن بالله وتستحضره فى كل موقف : وهذا الذكر الدائم يفيض على النفس أمناً واطمئناناً .

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص١٩٦ .

فالنفس المطمئنة هى التى سكنت ريح أهوائها وما تسول به لصاحبها من وساوس السوء ونزغات الشيطان فيأمن الانسان معها من أن تضطرب به سفينة حياته .

يقول جل وعلا ﴿**الذين آمنُوا وتطْمَئِن قُلُوبُهم بذكْرِ الله . ألاَ بذكْرِ الله تُطمئِن القُلوب**﴾[1]

والنفس الأمارة : هى النوع الثانى المقابل للنفس المطمئنة ، فهى تتضاد معها وتختلف اختلافاً بيناً . إن أعدى أعداء الانسان هى نفسه التى بين جنبيه فهى مدخل الشيطان إليه ، بوساوسه ومغرياته ، إنها الوحش الضارى لا تأنس إلى خير ولا تأوى إلى أنيس . «فهى نزاعة للشر ، داعية إلى العدوان متهجمة على الحرمات»[2] . ومع ذلك فإن لهذه النفس الأمارة علاجها وتطبيبها من دائها . ولا يكون العلاج إلّا بذكر الله والرجوع إليه . قال تعالى : ﴿**وما أبرىء نفسى إنَّ النفسَ لأمَّارة بالسوء ، إلَّا ما رحمَ ربِّى إنَّ ربِّى غفُورٌ رحيم**﴾[3]

والنفس اللوامة هى التى تلوم صاحبها على ما فرط فيه بما لا يرضى ربَّه . (والنفس اللوامة لا تسكن إلَّا قلب المؤمن بالله المراقب لجلال سلطانه وما يخشى من سطوة عذابه سبحانه ، يوم يقوم الناس لرب العالمين فى موقف المساءلة والمحاسبة وفى مقام الثواب والعقاب)[4]

قال تعالى : ﴿**إنَّ الَّذين اتقوا إذا مسَّهم طائفٌ من الشيطان**

---

(١) سورة الرعد آية ٢٨ .
(٢) الإنسان فى القرآن الكريم ص ٩٥ .
(٣) سورة يوسف آية ٥٣ .
(٤) الإنسان فى القرآن الكريم ص ٩٧ .

تذكّروا ، فإذا هُمْ مُبصرون﴾(١)

فالنفس اللوامة لا تزال على شيء من الفطرة السليمة ونقائها فإذا طاف بها طائف من الإثم هاجت ، ولا يقر لها قرار ولا يسكن لها حال حتى تتخلص منه وتعود إلى رحاب الله نقية كما كانت صافية كما خلقت .

ولقد عالجت القصة القرآنية شرور النفس ومسالكها المريضة ، حتى تضرب للبشر العبرة ، وحتى توضح مجالات الصراع المشتجر داخل الذات الانسانية بين الخير والشر ، وهما قوتان تتصارعان منذ أن همس ابليس لآدم أن يعصى ربّه .

كما عالجت القصة القرآنية جمال النفس واطمئنانها وضربت لذلك نماذج للنفس الخيّرة الكريمة ، التى تعلو على مفاسد الدنيا وأهواء الذات البشرية ، فتعلو ويعلو معها الخير ، وتورق وتثمر معها أغصان الحياة فضائل ومكارم أخلاق .

ومن خلال هذا الضرب من القصص القرآنى ، تأتى الأحكام التشريعية لتعديل السلوك وتقويمه . وضبط العاطفة وكبح الانفعال .

ويجدر بالذكر التأكيد على أن (أول صورة للعاطفة الأخلاقية هى الشعور بالممنوع والمكروه . فقد كانت الأشياء فى الجماعات الابتدائية منقسمة إلى ممنوع ومطلوب ، وحرام وحلال . فأدى وجود الممنوعات والمحرمات إلى إيقاظ شعور الانسان بشخصيته وإرادته . لقد كان هذا المنع فى الجماعات الابتدائية منعاً خارجياً ،

---

(١) سورة الأعراف آية ٢٠٠ .

فلما ارتقت الحياة الاجتماعية أدى ارتقاؤها إلى استبدال الرادع النفسى بالمانع الخارجى ، وصارت النفوس ترجع عن غيّها ، لا خوفاً من عقاب ، ولا طمعاً فى ثواب ، بل لأن لها منها زاجراً)[1]

وهذا التبدل يعنى أن شيئاً ما يتحول ويتبدل من السىء إلى الأحسن ، ومن ثم فإننا نلمس حساً أخلاقياً نامياً وراء هذا التبدل والتغير فى السلوك . وقد ينشأ هذا التغير من موقف عنيف أدى إلى الزجر والرفض والتهديد ، وقد يستمر الأمر دون تغير ملموس مما يستدعى وجود الرادع الخارجى حتى تتربى النفس على تنمية رادعها بداخلها .

ووراء النفس البشرية حياة متلاطمة الأمواج قليل منها يظهر والكثير مؤلف من نزعات خفيّة وأهواء دفينة وأحلام مكبوتة . وذلك كله مطمور تحت قشرة رقيقة فى المخزون النفسى الذى يشبه البركان الخامد . ولا شك أن لهذه التراكمات المكبوتة آثارها على الذات والسلوك ، من قلق وألم وقهر ويأس إلى الاصابة بالعقد النفسية ، والأمراض العقلية العصبية .

ولنذكر فى هذا المجال أن قصة قابيل وهابيل ولدى آدم نموذج فذّ ـ موجز غاية الإيجاز ، قيل دفعة واحدة ولم يتكرر كعادة القصص القرآنى ـ على حدة الصراع بين قوتى الخير والشر ، أو بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة بالسوء . قال تعالى :

﴿واتلُ عَلَيهم نبأ ابنَىْ آدم بالحقِّ إذْ قرَّبَا قُرْبَاناً فتقبِّلَ من أحَدِهما

---

(۱) علم النفس دكتور جميل صليبا ص ۲۸۷ دار الكتاب اللبنانى بيروت ط ۳ .

ولم يتقبَّل منَ الآخر قالَ لأقتلنَّك ، قَال إنَّما يتقبَّل الله من المتقين . لئن بسَطْتَ إليَّ يَدَكَ لتقْتُلَنى ما أنا بباسطٍ يدى إليْك لأقْتُلكَ إنَّى أخافُ الله ربَّ العالمين . إنّى أريدُ أنْ تَبُوأ بإثْمى وإثمِكَ فتكُونَ من أصحاب النَّار وذلك جَزَاءُ الظَّالمين . فطوَّعَتْ له نفْسُه قَتْلَ أخِيه فقتله فأصبح منَ الخاسرين . فبعث الله غُراباً يبحثُ فى الأرض ليريه كيف يُوارى سوءَة أخيه ، قالَ يَاوَيْلتى أعجزْتُ أن أكون مثل هَذَا الغُراب فأوارى سوءة أخى فأصْبَحَ منَ النادمين﴾ [1]

القصة تبدأ بالأمر الالهى إلى رسوله بقص قصة ولدى آدم إلى اليهود الذين يحسدون على المسلمين دينهم ورسولهم . والقصة تتحدث عن عاطفة بشرية مريضة هى عاطفة الحسد . فلقد قرب كلّ منهما قرباناً إلى الله فتقبِّل من هابيل ولم يتقبل من قابيل . فازداد قابيل حسداً وتوعده بالقتل . وكان أصل الصراع ومداره هو الأنثى .. المرأة ... مما يوحى بأن العاطفة غير الناضجة تجاه الأنثى تؤدى بصاحبها إلى الهلاك وبمن معه أيضاً . وشرع قابيل يهدد أخاه فى عنف وحدة وشراسة تنبىء عن وقوع نفسه تحت سيطرة الهوى والجموح الانفعالى والحسد الذى هو مرض نفسى ، على حين لم يرفع هابيل تجاه أخيه قابيل يداً أو يقوم بحركة عنيفة ، فهو الرجل الخيّر ذو النفس المطمئنة . وواجه أخاه قائلاً : لا أمد يدى إليك لأنى أخاف ربَّ العالمين . وإن فعلت ذلك ، وقادتك نفسك الشريرة إلى فعل هذا الجرم الشنيع فإنك سترجع بإثمين إثم قتلى قتلى ، واثم نفسك الهالكة . وانطمست النفس ورجعت إلى بدائيتها

---

(١) سورة المائدة آيات ٢٧ ـ ٣١ .

الأولى ، وطغى الحسد والحقد وتملكت النفسَ الأنانيةُ والغيرةُ ، فأقدم قابيل على قتل أخيه ثم حار ماذا يفعل به بعد قتله ؟ . فأرسل الله إليه غرابا أفهمه ـ بما فعل ـ كيف .. يحفر فى الأرض ليوارى جثة أخيه . فقام وستر جسد أخيه فى التراب . إننا هنا أمام انفعال عنيف يجتاح النفس فيؤدى إلى جريمة نكراء وهى قتل النفس البريئة التى حرَّمها الله .

والأنانية غريزة ترتكز عليها النفوس المريضة ، والانسان الذى تسيطر عليه الأنانية كشعور مرضى يعمل على هدم نفسه وهدم غيره أيضاً ، ويتآمر على نفسه كما يتآمر على غيره ، فيصبح عدو نفسه وعدو غيره من البشر . ومن ثم يصبح الرادع الخارجى المتمثل فى الحكم التشريعى الخاص بتعديل السلوك وتجريمه والقصاص من مرتكب الجريمة ، زاجراً لأصحاب النفوس المريضة ، ووسيلة إلى إقامة التوازن بين قوى الخير والشر .. والاعلاء من الخير وأهله والنيل من الشر وأهله . ولذلك كان القصاص فى الاسلام لمثل جريمة قابيل هى القتل .. (النفس بالنفس) . وذلك لاحياء البشر واستمرار الحياة .

والنفس كما تنطوى على الشر تنطوى على الخير وأكثر أفعال الانسان تلقائية وطبيعية تنشأ عن الغريزة تارة وعن العادة تارة أخرى .

وهذه الأفعال التلقائية الناشئة عن الغريزة أو العادة لا تخلو من عناصر الخير . ومن هنا وجب علينا إعلاء هذا الجانب والسمو به ، حتى يضحى نموذجاً ثابتاً ومتحركاً ومقتدىً به .

وقصة ولدى آدم وردت بسورة المائدة ، وسورة المائدة مدنية طويلة تناولت جوانب التشريع الإسلامى لتمكين الإسلام فى الأرض ، وإلى وضع المنهج الربانى للدولة الإسلامية الجديدة . ولاشك أن جريمة القتل من الجرائم التى تهز البناء وتؤثر فى المنهج وتقضى على الاستقرار . ولقد جاء القصاص حادًا وحاسما ليتلاءم مع عنف الجريمة وبشاعتها .

وهذه القصة تبين بالدليل أن الغيرة والحسد فى النفس المريضة يؤديان إلى العداوة والاعتداء على النفس ولا علاج للحسد ، وهو يحدث بين الاخوة كما حدث هنا ، وفى قصة يوسف ـ وهو مرض دفين يتملك من النفس ـ إلا بالمواجهة والبتر. إذا طغى الحسد من القلب وفاض هلاكًا للناس . ذلك لأن الهدف هو صلاح الجماعة ، وصلاح النفوس ، وصلاح الدين . ولذلك فقد أعقبت القصة آيات التشريع الخاصة بالقتل .

قال تعالى **﴿مِنْ أجْلِ ذَلك كتَبْنا عَلى بَنى اسْرَائيلَ أنَّه منْ قَتَل نفْسًا بغَير نفْسٍ أوْ فسادٍ فى الأرْض فكَأنَّما قَتَل الناسَ جميعًا ، ومنْ أحَياها فكأنَّما أحْيَا الناسَ جميعًا ، ولقَدْ جاءَتْهُم رسُلُنا بالبيِّنَاتِ ، ثمَّ إنَّ كثِيرًا مِنْهم بَعْد ذَلِك فى الأرْض لَمسْرِفُون﴾**[1]

وفى مثل هذا النوع من القصص القرآنى يرتبط فيه الحكم التشريعى بالسبب الذى أدى إليه . ففى قصة ولدى آدم . ذكر سبحانه ماكان بين الأخ وأخيه من محاربة لفطرة الأخوة ورباطها

(١) سورة المائدة آية ٣٢ .

الوثيق ، إذ هى مخالفة للطبائع السليمة . والطبع السليم الذى فطر الله الإنسان عليه ، لا يقدم على قتل الأخ . إن ذلك يعنى افتقاد الرحمة ، والرأفة والحنان .

وإذا كان قابيل قد ندم حين رأى الغراب أكثر حنانًا منه على أخيه ، فإن أمور الناس لا تترك فوضى يجرم الإنسان ويرتكب جريمته ثم يندم .. إن ذلك يعنى فساد الأرض وحيوانيتها . ومن أجل ذلك كانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الإنسان فى الحياة .

وذلك يدل دلالة قاطعة على أن القصاص قانون إلهى أزلى . ولقد وردت أحكامه فى الشرائع السماوية لأنها إحياء للأمة وللناس .

قال تعالى ﴿**يا أيُّها الذين آمَنُوا كُتِبَ عليْكُم القصَاص فى القَتْلى ، الحرّ بالحرّ ، والعَبْد بالعَبْد ، والأنْثى بالأنْثى فَمَن عُفِى لَه منْ أخِيه شَىْءٌ فاتّباع بِالمعْرُوف وأَداء إليْه بإحْسَان ، ذَلك تخفيفٌ مِنْ ربِّكم ورحْمة ، فَمن اعتَدى بَعْد ذلك فَلَه عَذَابٌ أليم . ولكم فى القصاصِ حياةٌ يَا أُولى الألْبَابِ لعَلّكم تتَّقُون**﴾[1]

ثامنا : التضْحِية من أجْل العقيدة :

أورد القرآن الكريم الكثير من مواقف التضحية فى سبيل العقيدة ، وضرب لنا نماذج إنسانية فى الاتصاف بقوة العقيدة ، والدفاع عنها والاستشهاد من أجلها ، وتلك النماذج وقد وردت ، تهدف إلى عرض العقيدة الإسلامية ، عرضًا قويا ، والدفاع عنها

---

(١) سورة البقرة آية (١٧٨ – ١٧٩) .

والدفاع عنها دفاعًا مستميتا ، دفاع من يرغب التضيحة بنفسه من أجلها مثلما فعل أصحاب الأخدود .

ومثل هذه القصص تحث على الاهتداء بنور الله والالتزام بما أوحى به والاعتقاد بأن الفلاح والنجاة فى التمسك بالعقيدة . وهى تتحدث أيضا عن قضية الثبات على العقيدة والتمسك بها وعدم التنازل عنها . وإن كلف ذلك صاحبها الآلام والصعاب ، تلك الصعاب التى قد تؤدى به إلى التضحية بالنفس ، فى سبيل أن يبقى كما هو ثابتا على مبدأ يقتنع به ، وهو الحق ، وفيا لعقيدته ، مخلصا لدينه .

(وهذه القضية ذات أهمية بالغة ، وذات حيوية خالصة بالنسبة لما كان يواجهه المسلمون من مشكلات إزاء استمساكهم بدينهم وثباتهم عليه وبخاصة فى الأيام الأولى من ظهور الإسلام فى مجتمع مكة[1])

ولاشك أن تكرار نماذج التضحية من أجل العقيدة يؤدى إلى ترسيخ العقيدة فى نفوس المسلمين فتستقر فى وجداناتهم ، فتضىء لهم الطريق وهم يواجهون ما يواجهونه من أنواع الاضطهاد والتعذيب ، وذلك بسبب ما يعتقدونه وما يؤمنون به .

وقصة أصحاب الأخدود وردت فى سورة « البروج » . وسورة « البروج » من السور المكية ، وهى تتعرض لحقائق العقيدة الإسلامية .

---

(١) القصص فى الحديث النبوى ص ٣١٢ .

قال تعالى ﴿والسَّماءِ ذاتِ البُروجِ . واليَوْمِ المَوْعُود . وَشَاهِدٍ ومشهود . قُتِلَ أَصْحَابُ الأخدود . النَّارِ ذاتِ الوقود . إذْ هُم عليْها قُعود . وهُم على ما يَفْعَلون بالمُؤْمِنين شُهُود . وما نقِمُوا مِنْهم إلاَّ أنْ يُؤْمِنُوا بالله العزيزِ الحميد . الذى لَه مُلْك السَّمواتِ والأرْضِ والله عَلَى كلِّ شَىْءٍ شَهِيد . إنَّ الذين فتَنُوا المُؤْمنين والمؤْمِنَات ثمَّ لمْ يَتُوبُوا فَلَهم عَذَابُ جَهَنَّم ولَهُم عَذابُ الحَرِيق . إنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ لهُم جَنَّاتٌ تَجْرِى منْ تحتِها الأنهارُ ذلكَ الفَوْزُ الكَبِير﴾ (١)

ولقد جاء فى حديث رسول الله تفصيل هذه القصة التى جاءت هنا موجزة أشد الإيجاز ، كأنما هى لمحة خاطفة ، جاءت لإبراز الغرض ومضت وقد أبقت تأثيرها فى النفوس .

وخلاصتها أن ملكا ظالمًا كافرًا أسلم أهل بلده ، فأمر بالأخدود فشق فى أفواه السكك ، وأضْرمت فيها النيران ثم أمر زبانيته وجنوده أن يأتوا بكل مؤمن ومؤمنة ويعرضوه على النار ، فمن لم يرجع عن دينه فليلقوه فيها ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام يا أماه اصبرى فإنك على الحق(٢) . ولقد جاء تفصيل ذلك فى كتب الصحاح .

والسورة بدئت بالقسم . والقسم من المؤكدات فى أساليب اللغة . والتأكيد هنا لإبراز مظاهر القدرة الإلهية ، ولقد أقسم الله سبحانه بمنازل السماء ، وبيوم القيامة ، وبالأنبياء الشاهدين على

---

(١) سورة البروج آيات ١ – ١١ .

(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٥٤١ .

أممهم ، على استحقاق أصحاب الأخدود للّعن والطرد من رحمة الله . وفى ذلك تشويق للقارئ أن يتعرف على أحداث القصة . فيثور فى ذهنه سؤال ؟ من أصحاب الأخدُود ؟ ولماذا استحقوا هذا العذاب كله ؟ لابد أنهم ارتكبوا جرمًا خطيرًا . وهذا التشويق إثارة لحواس الإنسان ، فيتهيَّأ للتَّلقى ويتأثر بما يتلقى . وبناء الفعل للمجهول يعطى دلالتين ، دلالة وقوع العذاب والطرد من الرحمة ، ودلالة التشويق وحب الاستطلاع لمعرفة هذا المجهول المضمر فى الفعل . فماذا فعل هؤلاء القوم . لقد شقوا الأرض طولاً وجعلوها أخاديد ، ثم أضرموا فيها النار .

هذا هو المشهد الأول الذى ورد مركزًا غاية التركيز . فهاهؤلاء يحفرون ويوسعون من الحفر ، وكلما حفروا ، كلما قست قلوبهم ، وانطوت على غلٍّ شديد لهؤلاء الذين سَيُلْقَى بهم فى تلك الأخاديد .

وها هى النيران مشتعلة ، وها هو الأخدود أشبه بالأتون المحمى ، والقوم يريدون أن يروا نتائج ما فعلوا .. إنهم يريدون أن يشفوا غليلهم ، وأن يريحوا قلوبًا أُجْهِدت من كثرة حفر أصحابها . ومن أجل تحقيق تلك الرغبة العنيفة ، رغبة أن يتلذذوا بإحراق البشر ، جلسوا حول النار وتحلقوا حافة الأخدود ، وذلك ليتشفوا بإحراق المؤمنين فيها ، ويشهدوا ذلك الفعل الشنيع . ولك أن تتخيل الفجوة هنا ـ وهى فجوة تصور مشهد المؤمنين وهم مساقون إلى مصيرهم وكلهم ثبات ، وكلما عرضوا على نار الأخدود استهزأوا به ، لأنهم ثابتون على عقيدتهم مؤمنون بدينهم وبربهم ، فجوة

تتصور فيها ، القوم الكفرة وهم يطلبون من المؤمنين الرجوع عن الدين ، وعن العقيدة ، ولك أن تتصور وسائل الترغيب والترهيب بما يتلوها من تلون فى حركة الوجوه وملامحها ، وذلك لصرف المؤمنين عن عقيدتهم ، ولكنهم يبوءون بالفشل ، حيث يضحى المؤمنون بأنفسهم ، ويستقبلون النار كما لو كانوا يستقبلون روضة من رياض الجنة .

● والغرض من هذا المشهد البشع هو تخويف كفار قريش ، ذلك لأنهم كانوا يعذبون من أسلم من أقوامهم بألوان العذاب ، ومنها الحرق والكى بالنار ، وذلك من أجل صدهم وإرجاعهم عن الإسلام . ومع ذلك فضل المسلمون الشهادة عن الرجوع عن الدين .

إن قصة أصحاب الأخدود علاوة على أنها نموذج للتضحية بالنفس من أجل العقيدة ، فهى أيضا وعيد للكافرين وتسْلية للمؤمنين . وتوضح الآيات أن سبب ذلك التحريق البشع هو إيمانهم بالله الواحد الأحد ، وليس الإيمان بالله سببا أبدًا وعلى الإطلاق لاستحقاق العقوبة . ولكن الطغيان والطاغوت لا يعرفان ذلك .

ومن ثم تقرر القصة كما وردت بأن الله غالب على أمره ، وأنه قادر وعزيز له المنعة وله الحمد . وأن مصير الكافرين الجبابرة نار جهنم ، ومصير المؤمنين الفوز بالجنة .

● وفى هذا المجال أيضا فإن قصة (مؤمن آل فرعون) نموذج للبطولة المشرفة فى وجه الطغيان ، وهذه البطولة إنما هى نتاج مبارك وعظيم

للتمسك بالعقيدة . ذلك أنه نصح قومه ، وهو يعلم أنّ مصيره قد يكون الموت ، ولكن قوة الإيمان تيار من النور يهدى أصحابه إلى الطريق الحق ، والكلمة الحقة ، والنصيحة الحقة .

قال تعالى : ﴿وَقَالَ رجلٌ مؤمِنٌ من آلِ فِرعَونَ يَكتُم إيمانه أتقتِلُون رجُلاً أنْ يقُول ربِّى الله وَقَدْ جَاءَكم بالبيّنَاتِ منْ ربِّكم وإنْ يكُ كاذبًا فَعَليْه كَذِبُه وإنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْض الذى يَعِدُكم ، إنَّ الله لاَ يَهْدى مَنْ هُوَ مسْرِفٌ كذَّاب . يَا قَوْمِ لكُم المُلْك اليومَ ظَاهرين فى الأرْض ، فمَنْ ينْصُرنا منْ بأسِ الله إنْ جَاءَنَا ، قالَ فرعَون ما أريكُم إلاَّ ما أرَى ومَا أهدِيكُم إلاَّ سَبيلَ الرَّشَاد . وقَالَ الذى آمنَ يَا قَوم إنّى أخافُ عليْكُم مثلَ يَوْمَ الأحْزَاب . مثلَ دَأْب قَومِ نوح وعادٍ وثمودَ والذين منْ بعْدِهم ، وما الله يريدُ ظلمًا للعباد . وَيَاقومِ إنى أخَافُ عليكُم يَوْم التَّنَادِ . يَوْم تولّون مُدْبرين مالكُم منَ الله من عاصِم ومنْ يُضْلِل الله فمَا له منْ هاد﴾ (1)

فمؤمن آل فرعون لم يسْتجب لدعوة فرعون الضالة ولم يقبله إلها كما قبله غيره . حيث استجاب لدعوة موسى فآمن بالله ، وكتم هذا الايمان . وهاهو الرجل الحكيم يجيء إلى فرعون فى ثوب الناصح الأمين طالبًا ألا يقتلوا رجلا مؤمنا يقول ربى الله . وبين لهم أن يدعُوه فإن كان كاذبًا عاد إليه كذبه بالويل ، وإن كان صادقًا فإن خيره سيعم .

ولكن الطاغية فرعون ينكر ما يقول ويرد عليه فى تكبر ممقوت

---

(1) سورة غافر آيات ٢٨ ــ ٣٣ .

بأن رأيه هو الصائب ، فى قتل موسى عليه السلام . ولكن مؤمن آل فرعون لا ييأس بل يمضى يحذرهم الويلات ، كالتى حلت بأقوام سابقين أنكروا الدين واتبعوا أهواءهم ، كقوم نوح وعاد وثمود ، حيث أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . ومع انسياق فرعون فى ضلاله وكبره وعناده فإن الرجل المؤمن لم يمسك لسانه عن الجهر بكلمة الحق حتى يعذر لنفسه ويقدم الحجة على فرعون والملأ من حوله . وفرعون يطغى ويشتد جبروته ، حتى أنزل الله به العذاب . ونصر الله أولياءه والداعين إليه .

وتبرز هذه القصة ـ فضلا عن التمسك بالعقيدة ـ أهمية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فى باب الإيمان والعقيدة . وذلك لأنه منهج تكافلى يقى المجتمع الشرور والفساد .

وهذه القصة تضع لنا مبدأً تربويا هاما وهو أن يجعل المسلم من نفسه حارسًا أمينا على الحياة فى مجتمعه . ويكون يقظا يستشعر واجبه فى العمل على وقاية المجتمع من خطر الضلال وشر الفساد ، ومن ثم فلا يكون هناك خطر على الحياة الاجتماعية من أن يتفشى فيها الفساد ، أما حين يهمل هذا الواجب ، واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، المنبثق من التمسك القوى بالعقيدة ، وينسى كل إنسان نفسه وغيره ، تاركًا نفسه وغيره للفساد والضلال ، فإن المفسدين يزدادون والضالين يكثرون فيعم البلاء والشر الجميع بلا استثناء .

تاسعا : التعارض بين الحب والواجب

من الأغراض الدينية العظيمة التى قامت عليها وأبرزتها القصة

القرآنية ، غرض خاص بعلاقة الآباء والأبناء . أو تعارض مشاعر الأبوة مع واجب البنوة ، أو ما يمكن أن نسميه بلغة العصر حنان الأب وتمرد الابن ، وتلك قضية هامة وحاسمة فى مجال علاقة الأجيال ، وتلقى الجيل عن الآخر دعوات الإصلاح والصلاح .

ولاشك أن موقف نوح من ولده أثناء الطوفان خير نموذج قصصى للتعبير عن هذا الغرض .

قال تعالى مصورًا هذا الموقف الهائل بين نوح وابنه العاصى المتمرد .

﴿.. حتَّى إذا جاءَ أمرُنا وفَار التَّنور قُلْنا احملْ فِيها منْ كلٍّ زوجَيْنِ اثنَين وأَهْلكَ ، إلاَّ منْ سبَق عَلْيه القَول ومنْ آمنَ ومَا آمنَ معهُ إلاَّ قليل * وقالَ ارْكبُوا فِيها بسم الله مجرَاها ومُرسَاها إنَّ ربى لغفُورٌ رَحِيم * وهى تجْرى بِهم فى مَوْج كالجبَال ونادَى نوحٌ ابنَه وكَانَ فى معزلٍ يابُنَى اركبْ معَنَا ولا تكُنْ معَ الكَافِرين * قالَ سآوى إلى جَبَلٍ يَعصمنِى مِنَ الماءِ قالَ لا عاصمَ اليومَ منْ أمرِ الله إلاَّ مَنْ رَحِم وَحَال بيْنهُما الموجُ فكانَ من المغْرَقِين * وقيل يا أرضُ ابلَعى ماءَك ويا سَمَاءُ اقْلِعى وغيضَ الماءُ وقُضِى الأمر واستَوتْ عَلَى الجُودِى وقِيل بُعْدًا للقوم الظَّالمِين * ونادى نوحٌ ربَّه فقالَ ربِّ إنَّ ابْنى منْ أهْلى وإنّ وعْدك الحق وأنتَ أحكمُ الحاكِمين * قَال يانوحُ إنّه ليْسَ منْ أهْلِك إنَّه عملٌ غيرُ صَالح فَلاَ تسأَلْنِ ما ليسَ لك بِه علْم إنِّى أعظُك أنْ تكون من الجَاهِلين * قَال ربِّ إنِّى أعوذُ بكَ أنْ أسأَلَكَ ما لَيْسَ لى به عِلْمٌ وإلاَّ تغْفر لى وترْحَمْنى أكُن منَ

الخاسرين﴾ [1]

فى هذا الموقف العصيب والمشهد الرائع ، يفور التنور وتغرق الأرض فى طوفان هائل جبار ، وجاءه الأمر الإلهى بأن يحمل من كل زوجين اثنين .. وأن يركب معه أهله المؤمنين به ، ومن آمن به من الناس . وأسلمت السفينة نفسها للمشيئة الإلهية فى جريانها ورسوها . وخاضت السفينة أمواجًا عاتية كالجبال ولكنها محروسة بإرادة الله .

والهول فى هذا الموقف هولان . هول فى الطبيعة الصامتة ، وهول فى النفس البشرية ، هولان يلتقيان وهى تجرى بهم وسط هذه الجبال المائية . ويبصر نوح عليه السلام فى هذا الوقت العصيب ، أحد أبنائه بعيدا عنهم وتستيقظ فى كيانه الأبوة ويهتف بولده . اركب معنا . ولكن البنوة العاقة لا تأبه بالأبوة الملهوفة ، ويغتر الابن العاق المتمرد بفتوته وشبابه فيتعالى صوته . إنى سآوى إلى الجبل ، ولكن الأب العاقل النبى الحكيم يدرك حقيقة الأمر فيخاطبه قائلاً لا عاصمَ من أمر الله . ليس لنا فى هذا المجال إلا أن تدركنا رحمة الله . وتختلط الأمواج وتضطرب وتعلو الأمواج وتتكاثف ، ويحول الموج بين نوح وابنه .. ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء والفتى المغرور يأبى أن يجيب والده والموجة العتية تحسم الموقف فى سرعة خاطفة وينتهى كل شىء . إن الهول كما كان فى الطبيعة كان فى نفس الإنسان . ثم يأتى مشهد آخر من

---

(١) سورة هود آيات ٤٠ ـ ٤٧ .

القصة ، فها هو الطوفان ينحسر ، ويتمشى الإستقرار على الأرض والحياة كما يتبدى فى الألفاظ والإيقاع . ويأتى الأمر الإلهى إلى السماء والأرض فتبلع الأرض ماءها وتكف السماء عن أنهار المطر . وترسو السفينة بعد هذا الهول الشديد على جبل الجودى وينتهى كل شىء .

وتستيقظ فى نفس نوح اللهفة على ولده ، بإحساس الوالد المفجوع . ويتضرع إلى الله . إنَّ ابنى من أهلى . وقد وعدتنى بنجاة أهلى ، وجاءه الرد بالحقيقة التى غفل عنها فالأهل عند الله وفى دينه وميزانه ليسوا قرابة الدم إنما هم قرابة العقيدة وهذا الولد لم يكن مؤمنا . جاء الرد فيما يشبه التقريع والتأنيب ، إنه ليس ابنك ، إنه منْبَتّ منك ولا رابطة بعد ذلك ، فالحقيقة الكبرى فى الدين هى عروة العقيدة التى تربط بين الفرد والفرد وليست ـ فقط ـ عروة النسب والقرابة . وجاءه الخطاب الإلهى واعظا إياه خشية أن يكون جاهلاً بحقيقة الروابط بين الناس فى العقيدة ، أو بحقيقة وعد الله له بنجاة أهله ، فلقد نجا أهل نوح على الحقيقة .

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن ، ويخشى أن يكون قد زلّ فى حق ربّه ، فيلجأ إليه مستعيذاً طالبًا الغفران ، إنى أعوذ بك ... وتدرك رحمة الله نوحًا فيطمئن قلبه ، وتباركه والصالح من نسله وتأتى الخاتمة بشرى لمن يؤمن من ذريته ، ووعيدًا لمن يبتغى متاع الدنيا[1] .

---

(١) ظلال القرآن الجزء ١٢ ص ٦٤ـ ٦٧ .

وفى قصة نوح مع ولده نلمح هذا المعنى المصور تصويرًا حيًّا كأنه أمر محسوس . إنه حنان الأب ورفقه بولده ، فقد رأينا فى النبى المجاهد عاطفة الأبوة تعلو فينادى ابنه وكأننا نسمع النداء فى مشهد من مشاهد الأبوة ثم نجد الابن وقد غرّه غرور الصبا والابتعاد عن التصديق ، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق ، إذ اعتصم بجبل آوى إليه ، فكان من المغرقين والأب تنفطر نفسه فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ويتجه إلى ربه باكيا حزينا إذ نجا أهله إلا ابنه ، فيقول وكأننا من فرط التصوير نسمع أنين الأب بعد أن نجا كل من فى السفينة وقد استوت فى طريقها وهلك الظالمون . ولكنه يعلم أن ابنه داخل فى عموم الكافرين لأنه كفر ، والذى نجا هم المؤمنون .

وتلك القصة الحوارية بين نوح وابنه ، ثم بين نوح وربه ، لتعطى لنا حقيقة الغرض الذى سيقت من أجله ، وهو التعارض بين الحب والواجب . فتحت قوة العاطفة الأبوية نطق نوح بما نطق ، فنبهه الله إلى الواجب ، والله لم ينبه غافلا ، ولكنه نبه يقظا مؤمنا ضارعًا وإن كان نوح فى موقف الهول الشديد موقف الطوفان كان قد ناجى ربه بصوت البشرية وحنانها وعاطفتها[1] . ولكنه يتوب حين يدرك المغزى والهدف ﴿... **وإلاَّ تغفِر لى وترحمنى أكن من الخاسرين**﴾

وتجدر الإشارة فى هذا المقام إلى ذكر امرأة نوح . ذلك لأن لها

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٠٧ .

ارتباط نشأة بابن نوح الذى أثار فى والده عاطفة الخوف عليه لمشاعر الأبوة البشرية التى طفت فى هذا الموقف العصيب .

فلقد ذكر القرآن الكريم السفيهات من النساء اللائى غلب عليهن الهوى الفاسد فاستحوذ عليهن الشيطان وألقين بأنفسهن فى مهاوى الضلال والكفر بالرغم من أنهن أصحاب بعولة نبوية تتلقى الوحى والدعوة . فهن إذن قريبات ولصيقات من أصحاب الرسالة .

فامرأة نوح واحدة من هؤلاء ، تخالط نوحًا النبى الكريم وتسْكن إليه وتتفيأ ظلال النبوة فى بيته .وتشهد أنوارها فى أيامها ولياليها . وكان من الطبيعى والمرجو أن تكون هذه المرأة أول المستجيبين له والمؤازرين لدعوته ، ولكن العكس كان هو الصحيح فوقفت فى عناد وتكبر مع المخالفين له ، والمتحرشين به ، والمستهزئين بما يقوم بفعله كصنع السفينة . واستحقت هذه المرأة عقاب الله وعذابه ، فأضحت مع المغرقين الهالكين من قوم نوح .

ولقد صارت امرأة نوح مثلاً مضروبًا لكل من يضل عن الهدى ويركب الطريق الضال وبين يديه وفى بيته المصباح الموجّه إلى مسالك الحق والخير والأمان والإيمان[1] .

قال تعالى **﴿ضربَ الله مَثَلاً للذين كَفَرُوا امرَأَةَ نوح وامرأةَ لُوطٍ ، كانتَا تحْتَ عَبْدَيْن منْ عِبادِنا صَالحَيْن فَخَانَتَاهُمَا ، فلَمْ يُغْنِيَا عنْهما منَ الله شَيْئًا وَقيل ادخُلاَ النَّارَ معَ الداخِلين﴾**[2]

(١) الإنسان فى القرآن الكريم ص ١٣٢ – ١٣٣ .
(٢) سورة التحريم آية ١٠ .

والجدير بالذكر ... أن الخيانة هنا ليست خيانة ترتبط بالعرض أو بالشرف ، وإنما هى خيانة فى الدين وإذا كان البعض قد أسند إلى امرأة نوح الفاحشة فهذا لا يجوز لأن الله أكرم أنبياءه أن تتعاطى واحدة منهن الفجور بل هن شريفات مصونات لحرمة الأنبياء وقد قال ابن عباس ما بغت امرأة نبى قط وإنما كانت خيانتهما أنهما كانتا على غير دينهما وكانتا مشركتين[١] .

وكون أنهما امرأتان لنبيّين ، فإن ذلك لم يدفع عنهما العذاب . وقال القرطبى ضرب الله تعالى هذا المثل تنبيها على أنه لا يغنى فى الآخرة أحدٌ عن قريب ولا نسب إذا فرّق بينهما الدين ، كما لم يدفع نوح ولوط مع كرامتهما على الله تعالى عن زوجتيهما لما عصت شيئا من عذاب الله[٢] .

ومن حكمة الله فى مجال الطوفان وقصته التى نحن بصددها أن يكون ابن نوح من طبيعة أمه فيكفر بأبيه كما كفرت أمه ويغرق مع الغارقين . فهذا الابن إن يكن ولد نوح النبى فهو أيضا ولد امرأته الفاسدة ، ولقد نزع الولد إلى عرق أمه فجاء على صورتها فى طبيعتها النكدة .

عاشرًا : ذِكر النعم وأغراض أخرى .

من الأغراض التى حرصت القصة القرآنية على إبرازها وتجليتها غرض يتحدث عن بيان فضل الله ونعمته على أنبيائه وأصفيائه .

---

(١) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٤١١ .
(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٤١٢ .

وذلك فى قصص سليمان وداود وإبراهيم ومريم .. وغيرهم ، فلقد وردت فى قصص هؤلاء جميعا ، مظاهر النعم التى تجلت عليهم فى مواقف كثيرة متنوعة ، حيث ارتبطت نعمة الله بالموقف الذى جاءت فيه .

ولنأخذ قصة واحدة كنموذج لذلك الغرض المتعدد القصص ، وهى قصة يونس عليه السلام ونعمة الله عليه .

قال تعالى ﴿**وإنَّ يُونس لمنَ المرْسَلِين * إذْ أَبَقَ إلى الفُلْكِ المشْحُون * فسَاهَم فكَانَ منَ المدْحَضِين * فَالتقمَه الحوتُ وهو مُليم * فلَولاَ أنَّه كانَ منَ المسبِّحِين * لَلَبِثَ فى بَطْنِه إلى يَوْمِ يُبعَثون * فَنَبَذْنَاهُ بِالعَرَاء وهُوَ سَقِيم * وأَنْبَتْنَا عليه شجرةً منْ يَقطين * وَأرسَلْنَاهُ إلى مائةِ أَلْف أوْ يزيدُون * فَآمنُوا فمتَّعْناهم إلى حِين**﴾ (١)

وقال تعالى ﴿**وذَا النُّونِ إذْ ذهَبَ مُغَاضِبًا فظنَّ أَنْ لَنْ نقْدِر عَليه ، فنادَى فى الظُّلمَات أَنْ لاَ إله إلاَّ أنْتَ سُبْحانَك إنِّى كنْتُ منَ الظَّالمِين * فاستَجْبنَا لَه ونجيْنَاهُ منَ الغَم وكذَلِك نُنْجِى المؤمنين**﴾ (٢)

يدعو يونس نبى الله قومه إلى الإيمان ، فيواجه بقوم غلاظ ، فيضيق صدره بتكذيب قومه ، فأنذرهم بعذاب شديد . وخرج من بلده غاضبا من قومه مغاضبا لهم ، إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم . وقاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينة مشحونة ، وهبتْ العاصفة

---

(١) سورة الصافات آيات ١٣٩ ــ ١٤٨ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧ ــ ٨٨ .

ولعبت الرياح والأمواج بها ، وقال الملاحون أن بالسفينة عبْدا آبقًا من سيّده ولابُدّ لنجاة السفينة من إلقائه فى البحر ، فاقترعوا واستخدموا فى قرعتهم السهام ، وخرجت القرعة على يونس فكان من المدحضين ، أى المغلوبين ، فألقوه فى البحر فابتلعه الحوت .

وتبين الآيات أن يونس ظن ـ وقد هرب غضبا من قومه ولم يصمد ويواجه القوم فى الدعوة إلى الله ـ ظن أن الله لن يضيّق عليه بالعقوبة ، وأنَّ الأمر سيمضى دون عبرة وموعظة . ويونس يُلام فى الآيات لتخلِّيه عن المهمة التى أرسله الله بها ، فترك قومه دون إذن من ربِّه .

ونادى يونس ربه وهو فى هذه الظلمات ، ظلمة البحر ، والليل وبطن الحوت ، نادى ربه بأن لا إله إلا هو ، تنزه عن الظلم ، ويعلن يونس فى هذا الموقف العظيم توبته وندمه ، فكشف الله عنه المحنة وأنعم عليه بنعمة عظيمة وهى النجاة من الموت ، ومن الضيق الذى كان فيه ، ومن الكرب الشديد الذى شعر به وهو فى بطن الحوت .

وألقى الله يونس من بطن الحوت على الساحل بالأرض العراء التى لا شجر فيها ولا نبات ، فأنبت الله فوقه شجرة من يقطين لتظله وتقيه حرّ الشمس ، وحين خرج يونس من بطن الحوت كان جلده رقيقا لا يتحمل شيئا لمكوثه فترة وسط المياه فى بطن الحوت ، فتلاءم أن تكون الشجرة من نبات اليقطين الذى يمنع اقتراب الذباب الذى يضايق الإنسان فى مثل هذا الموقف .

واستكمل يونس عافيته وقوته فعاد إلى قومه الذى هرب منهم

فآمنوا بعد أن رأوا علامات العذاب ، فمتعهم الله فى الدنيا[1]

إنَّ القصة تظهر العواطف البشرية إزاء المواقف الصعبة ، كما تبرز النعمة الكبرى التى ينعم بها الله على أنبيائه وأصفيائهم ، فالله معهم وناصرهم ، ومؤيدهم .

كما أن القصة عالجت قيمة من القيم الدينية الثابتة وهى متضمنة فى مبدأ التوبة . ذلك أن الإنسان خلّق مكون من نفخة الروح العلية ومن قبضة الطين السفلى ، ومن ثم يمكن أن يدركه الضعف ــ ولو كان نبيا ــ مثلما حدث ليونس ، ولكن سرعان ما يتغلب الإنسان المؤمن صاحب الدعوة على لحظة الضعف هذه فيعود مرة أخرى إلى الصعود على مدارج الروح العلية .

والتوبة علاج حاسم للآلام النفسية التى يولدها الضعف فى الموقف الذى يواجهه الإنسان ، وهو بذلك يتحرر من الضغط النفسى الذى يحتويه . ففى التوبة راحة تامة وتنفيس طبيعى وحياة جديدة .

فقصة يونس وإن أبرزت نعمة الله على خلقه ، فقد قدمت لنا قيمة دينية عظيمة ممثلة فى مبدأ التوبة .

● وللقصة القرآنية أغراض متفرقة لبيان قدرة الله وعظمته فى مجال الخوارق كقصة الخلق وميلاد عيسى وقصة إبراهيم والطير .. والذى مرَّ على قرية وهى خاوية على عروشها وقد أحياه الله بعد موته مائة عام ..

---

(١) انظر صفوة التفاسير جـ٣ ص ٤٤ ، جـ٢ ص ٢٧٣ .

كما كان من أغراض القصة القرآنية بيان عاقبة الطيبة والصلاح وعاقبة الشر والفساد كقصة صاحب الجنتين وقصص بنى إسرائيل وكذلك بيان الفارق بين الحكمة الإنسانية القريبة العاجلة والحكمة الكونية البعيدة الآجلة[٢] . مثل قصة موسى والعبد الصالح .

● كلمة أخيرة ●

يتضح مما سبق أن الأغراض التى تناولتها القصة القرآنية من النوع الذى يثير فى السامع أو القارئ على السّواء كثيرًا من الانفعالات ويحرك فيه شتى العواطف والمشاعر ، ويجعل الإنسان أكثر ارتباطا وشوقا إلى مواصلة القصة ومتابعة أحداثها حتى النهاية . وذلك لما يتضمنه بناء القصة القرآنية من قوة العرض والسرد ، وجمال الوصف والتصوير ، وحركة الأشخاص وصراعها فيظل الغرض القصصى عالقًا فى الذهن ومؤثرًا فى النفس .

ولاشك أن الغرض فى القصة كان وراء طريقة بناء القصة وتكرارها ، وطريقة الأداء الفنى الذى اتخذته القصة القرآنية وسيلة للإبلاغ والتوصيل من تفصيل فى العرض أو إيجاز فيه ، أو اكتفاء بالسرد أو استعمال الحوار أو المزج بينهما ، أو تعقيد الموقف ، أو تبسيطه ، فضلا عن تخير المواقف المثيرة بما تتضمنه من مفاجآت وحلول .

فالغرض الذى تبرزه القصة القرآنية يتمثل أمام القارئ أو السامع عبر بسط ، وسرد ، وانفراج وتعقيد حافل بعناصر

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص ١٥٥ طبعة دار الشروق .

الانفعال والجذب الانفعالى . وهذا مما يعمق هذه الأغراض فى النفوس .

الفصل الخامس

• التكرار فى قصص القرآن •

الذى يتصفح القرآن الكريم ويتملى من القصص الدينى والواقعى الذى ورد فيه ، يلمس ظاهرة تثير انتباهه ، وهى ظاهرة التكرار فى كثير من السُّور القرآنية .

والقرآن الكريم دستور المسلمين ، وهو أيضا دليلهم إلى التربية الإسلامية الحقة لهم ولغيرهم من الأجناس البشرية . إنه كتاب تربية دينية وأخلاقية ومسلكية للإنسانية العاقلة جمعاء . ولاشك أن التكرار من الوسائل التربوية لتأكيد المبدأ وترسيخ المعتقد حتى يصبح له الفاعلية المؤثرة ، إنه وسيلة القصص القرآنى إلى الصقل والتوجيه والتهذيب والموعظة .

والتكرار يرد فى كثير من السور التى تتناول قصص الأنبياء والأمم الماضية . ولا يعنى التكرار تشابها للمواقف ولا للمعانى ، فالسور القرآنية منها ما هو مكى ومنها ما هو مدنى ، وكل سورة لها موضوعها ووحدتها الخاصة ، وما جزء القصة المحكى إلا تنويع للموضوع وإبراز لغرضه .

ومن الأغراض الدينية التى ذكرناها آنفا ندرك أن التكرار فى القصص القرآنى مقصود لذاته ، ذلك أن القصة فى القرآن ذات

هدف دينى بحت هو المدخل إليها وهو النهاية أيضا .

والتكرار من الأساليب البيانية القرآنية وهو يختلف عن الأطناب ، ذلك لأن الأطناب تزيّد فى التعبير وإيراد المعنى ، أما التكرار فهو تنويع مقصود لتوجبه النظر ، ولمناسبة الموقف والمقام . ذلك لأن التوجيه إلى النظر فيما يسمعون أو يقرأون أو يشاهدون إنما هو مقدمة إلى إبراز الوحدانية ومواجهة معارضيها .

ولأن مبدأ الوحدانية من المبادئ الكلية الأصولية فى الرسالات جميعها كان التكرار فى القصص والآيات توجيها تربويا لترسيخه وتأصيله .

والتكرار من تصريف القول وهو وجه من وجوه البيان القرآنى الذى قصد إليه القرآن الكريم .

ففى كثير من الأحيان ترد القصة القرآنية مكررة فى مواضع متعددة ومواقف مختلفة . وهذا التكرار لا يتناول القصة دفعة واحدة ، فى أغلب الأحيان ، وإنما هو يورد بعض حلقاتها . ومعظم التكرار إشارات سريعة إلى موضع العبرة والعظة . أما جسْم القصة ذاتها فلا يكرر إلا نادرًا . وحين نقرأ هذه المواقف القصصية المجزَّأة نلاحظ ارتباطها الوثيق بالسياق الذى وردت فيه ، لاعتبار واضح ومحسوم وهو (أن القرآن الكريم كتاب دعوة دينية وأن التناسق بين حلقة القصة التى تعرض والسياق الذى تعرض فيه هو الغرض المقدم ، وهذا يتوافر دائما . على أن هناك ما يشبه أن يكون نظامًا مقررًا فى عرض الحلقات المكررة من القصة الواحدة . فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ثم تطول هذه الإشارات شيئًا فشيئًا ثم

تعرض حلقات كبيرة تكوّن فى مجموعها جسم القصة . وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها ، كانت هذه الإشارات هى كل ما يعرض منها[1] .

ولقد لمسنا من خلال عرضنا لأغراض القصة القرآنية ، أن من أهم الأغراض هو إثبات الوحدة الكلية ، وحدة الله والدين والأنبياء ، وطرق الدعوة ، والنهاية . ونشأ عن هذا الغرض الرئيسى ، عرض قصص الأنبياء والرسل والأمم السابقة فى شريط ممتد عبر السور كلها غالبا ، ولكنه شريط انفرطت أجزاؤه لتكرر فى مواقف جديدة ومتجددة بتنويعات جديدة وبمعانى متناسقة مع هذا التنوع والتجزيىء . وهذا التنوع التكرارى متعدد العبر فى مواقف الرسل مع أقوامهم . كما أنه تجديد للمعنى لغاية أخرى ومقصد آخر .

وهذا التكرار لأجزاء القصة ومواقفها ينشىء من ناحية العرض والنسق الفنى مبدأً فنيا ثابتًا وجميلا . حتى ليخيل لسامع القصة أو قارئها أنه يتعامل مع نبى واحد وإنسانية واحدة ، فثمة تشابه عام فى النسق الفنى والهيكل العام حتى ليبدو الأمر أننا أمام نبى واحد يتحدث بلسان الأنبياء وأمة واحدة تمثل جميع الأمم . فكل نبى يدعو إلى التوحيد ويقول كلمته لأمته المعارضة ثم يمضى ليأتى نبى يدعو إلى التوحيد ويقول كلمته لأمته المعارضة وهكذا ...

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم ص ١٥٦ .

. وتجدر الإشارة هنا إلى أن القصة القرآنية فى طريقة عرضها وتكرار أجزائها تختلف اختلافًا بينًا عن القصة فى التوراة والإنجيل .

فالتوراة تسرد فى تفصيل وتتابع قصص الأنبياء ودور المرأة فى حياتهم ، والصراع بين قوى الخير والشر . فقصة كل نبى تبدأ غالبًا بمولده وتنتهى بوفاته وتروى ما كان من أحداث بين البداية والنهاية . ولما كانت تلك القصص تهتم برواية أفعال النبى فقد أطلق على أسْفار العهد القديم أسماء الأنبياء ، أو منْ قاموا بخدمات جليلة لإسرائيل [1] .

أما القصة القرآنية فلا تقصد لذاتها وإنما للغرض الدينى الذى سيقت من أجله ، ولذلك لا يوجد فى القرآن الكريم قصة نبى كاملة فى سورة واحدة إلا قصة يوسف .

ولقد توزعت قصص الأنبياء على كثير من سور القرآن ، حتى لتزيد عن أربعين سورة قرآنية ، وأكثر قصص القرآن تكرارًا وتوزعًا هى قصة موسى عليه السلام مع قومه . وقصص بنى إسرائيل عامة من أكثر القصص تكرارًا فى القرآن كله . وكان ذلك لتوضيح معنيين كبيرين :

الأول هو بيان ما كان يلقاه بنو إسرائيل من عذاب على يد فرعون وأتباعه وفى ذلك تأسية للمسلمين فى مكة . حيث كانوا يلقون العذاب والاضطهاد من قريش ، فتكون قصة بنى إسرائيل عزاءً للمسلمين .

---

(١) الهلال عدد ديسمبر ١٩٧٠م عبد الحميد جودة السحار .

والثانى بيان أن بنى إسرائيل أمة قامت حياتها على كتاب من عند الله . ولم يستقيموا على ما جاء به بل خرجوا عليه .

لذلك كثر ورود قصة بنى إسرائيل فى العهد المكى وكذلك فى العهد المدنى تحذيرًا للمؤمنين من أن ينحرفوا كما انحرف بنو اسرائيل وتهاونوا فى كتابهم كما تهاون بنو إسرائيل .

والقرآن الكريم اتخذ من أنباء الرسل وسيلة لبيان أغراض القرآن وبسط مقاصده وتقريبها للفهم .. ومن ثم جاء التكرار لتثبيت المعنى المراد ، ولقد أصبحت هذه الأسماء لكثرة تكرارها مألوفة لدى المسلم فتتداعى المعانى والمثل المصاحبة لها إلى ذهن المسلم ، فأصبحت أسماء مثل نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، ويوسف ، وعيسى .... عناوين لمبادئ وقيم يستحضرها الذهن بمجرد نطقها [1]

وتكرار القصة فى القرآن الكريم وثيق الصلة بمنهجه القصصى إذ هو يخدم غرضين فى آن واحد . أما الغرض الأول فهو غرض فنى ، يتمثل فى تجدد الأسلوب وتجديد العرض وطريقة السرد إيجازًا وبسطا ، إشارة أو تجسيدًا ، ووسيلة الأداء التعبيرى والتصويرى .

والغرض الثانى غرض نفسى له اتصال بالنفس البشرية ومجال التأثير فيها ، ذلك لأن الشيء المكرر سواء كان مشاهدًاأو مسموعًا ينطبع فى شعور الإنسان مما يؤثر على مسالكه ومشاربه ومما يؤدى إلى نوع من التطهير والتعديل فى القيم والمشاعر والسلوك .

---

(١) الإسلام والمذاهب الحديثة فتحى رضوان ص ١١٦ اقرأ ١٩٧٦م .

وللتكرار فى قصص القرآن طريقة يتفرد بها عن غيره من مجالات التكرار .

فمن طرق القرآن الكريم فى تكرار القصة أن يعيد ذكرها فى منتهى الإجمال والإيجاز ، كما ورد فى سورة المزمل فى قوله تعالى ....

﴿إنَّا أرْسَلْنَا إليكم رَسُولاً شَاهِدًا عليْكُم كَمَا أرسَلْنَا إلى فِرْعَوْن رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْن الرسولَ فأخذْناه أخْذًا وبيلاً﴾[1]

وسورة المزمل تتناول جانبًا من حياة رسول الله محمد ﷺ ولقد أمرت الآيات فى السورة رسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين ، كما توعدت الآيات المشركين بالعذاب الشديد . ومن ثم كان تكرار قصة فرعون مع موسى بهذا الإيجاز الشديد إشارة موجزة إلى تسلية الرسول وإيراد العبرة ، وتحذير الكافرين . حيث أوجز القصة فى آيتين . والهدف هو إبراز النهاية ، نهاية الطغاة . وبيان أن محمدًا مثل موسى كليهما بعثا لهداية الخلق (وإنما خُصّ فرعون وموسى بالذكر من بين سائر الرسل لأن محمدًا آذاه أهل مكة واستخفوا به لأنه ولد فيهم ، كما أن فرعون ازدرى بموسى وآذاه لأنه رباه[2] . وفى الآية الكريمة تنبيه على أنه سيحيق بهؤلاء ما حاق بأولئك .

والتكرار فى القصة القرآنية مرتبط كما قلت بالغرض الدينى للقصة ، ومن ثم فقد جاء الجزء المتكرر من القصة متناسقا مع الوسط الذى عرضت فيه . فأدى إلى وجود تناسق فنى . فكأنما التكرار يؤدى إلى التناسق الفنى ، وإلى جمال التصوير ، وإلى

---

(١) سورة المزمل آية ١٥ ـ ١٦ .

(٢) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٤٦٨ .

ارتباط الأداة التعبيرية بالموقف والمعنى والغرض فى وحدة واحدة لا انفصام بينها .

فهذا مشهد من قصة إبراهيم وهو يبنى الكعبة مع ابنه اسماعيل . قال تعالى ﴿**وإذْ يرفَعُ ابراهيمُ القَواعِدَ منَ البيتِ واسْمَاعِيل . ربَّنا تقبَّل منّا إنَّكَ أنْت السَّميعُ العليمُ . ربَّنا واجْعَلْنا مُسْلمَيْن لك ومنْ ذُرِّيَتنا أمَّة مسْلمةً لك ، وأرنَا مناسِكَنَا وتُبْ علينَا إنَّك أنْت التواب الرحِيم . ربَّنا وابعثْ فيهم رسُولاً منْهم يتْلو عليهم آياتِكَ ويعلمهم الكتابَ والحكمة ويُزّكيهم إنكَ أنْتَ العزيزُ الحكيم**﴾[1]

وفى هذا المشهد من قصة إبراهيم مع ولده اسماعيل ، يحدث الانتقال من الخبر إلى الدعاء . وهذا الانتقال أحيى المشهد وجعله حاضرًا فالخبر أن إبراهيم يرفع قواعد البيت (كأنما هو الإشارة برفع الستار ليظهر المشهد . البيت ، وإبراهيم واسماعيل يدعوان هذا الدعاء الطويل . وكم فى الانتقال هنا من الحكاية إلى الدعاء .. من إعجاز فنى بارز يزيد وضوحًا لو فرضْتَ استمرار الحكاية ، ورأيتَ كم كانت الصورة تنتقص لو قيل وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت واسماعيل يقولان : ربنا ... إلخ إنها فى هذه الصورة حكاية ، وفى الصورة القرآنية حياة ، وهذا هو الفارق الكبير . إن الحياة فى النص لتثب متحركة حاضرة ، وسر الحركة كله فى حذف لفظة واحدة[2] .

والتكـرار قد يكون فى بعض أجزاء القصة القرآنية بحيث

---

(١) سورة البقرة ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(٢) التصوير الفنى ص ٥٧ .

يتمم جزءٌ جزءًا آخر فى موضع آخر ، بحيث كلما تكررت حلقة ذكرت فيها معانى جديدة ، وذلك بسبب استخدامها كوسيلة من وسائل التأثير فى غرس العقيدة[1] ويحدث ذلك بأساليب مختلفة وعبارات متنوعة تجعلنا لا نكاد نشعر عند قراءتها بتكرارها .

وللتكرار مواطنه . وموطنه الأساسى هو أنه جاء تجاوبًا مع بيئة الدعوة وأهدافها وأغراضها ، متناسقا معها متجاوبا مع مواقفها وتطوراتها . ومن ثم لم تستوعب القصة وإنما جاءت اختيارًا جزئيا ليفى بالغرض .

(١) سيكلوجية القصة القرآنية ص ١٣٩ .

• قصة إبراهيم .. نموذج تطبيقى •

قلنا إن من خصائص القصة القرآنية .. التكرار . والتكرار حين يرد فى قصص القرآن فإنما ليجدد المعنى ويبرزه لغاية جديدة ومقصد جديد . فلا تأتى حلقات القصة دفعة واحدة وإنما على أجزاء ترتبط بغايات دينية متجددة ، ومن ثم يتأتى لنا أن نقرر أن أجزاء القصة ، وهى تتوزع على سور القرآن ، يأتى هذا التوزع متراوحًا بين الاجمال تارة وبين التفصيل تارة أخرى وبين الإشارة تارة ثالثة ..

والحكمة الإلهية تتجلى واضحة من وراء هذا التكرار وتوزيع أجزاء القصة على السور القرآنية ، ذلك أن التفرق فى مواضع مختلفة ومواقف متغايرة ومتجددّة يربط العبرة والهدف الدينى بالموقف الإخبارى المسرود فى القصة . ولو اجتمعت الأجزاء كلها فى قالب واحد لتماثَلَتْ مع القصص الدينى فى التوراة والإنجيل ، وقصص الأقدمين ، ولانتفت منها العبرة والغرض الدينى الذى هو محور القصة القرآنية وعمودها الرئيسى ..

وليس فى القصة القرآنية ذلك التكرار المطلق ، فالتكرار يأتى ليلائم السياق الذى ورد فيه . والقصة القرآنية وهى تتكرر ليس من هدفها السرد التاريخى ، فالقصة فى القرآن لا تتحدث عن تاريخ ولا تهتم كثيرًا بالزمان الطولى الممتد للشخصية ، وإنما هى انتقاء

لمواقف فى حياة محور الشخصية سواء كانت الشخصية نبيا ، أو شخصية بشرية واقعية .

ولنأخذ نموذجًا على ذلك قصة إبراهيم عليه السلام كما وردت وتوزعت على سور القرآن الكريم .

لقد كانت الدعوة التى قام بها إبراهيم عودة إلى الفطرة السليمة التى خَلق الله الناس عليها . فأساس الدين الفطرة ، وجوهر الفطرة هو التوحيد . ومن ثم كان التوحيد أساس كل الأديان .

إن ما قام به ابراهيم هو فتح جديد فى تاريخ العقيدة . فلم يبدأ ابراهيم عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ولكنه بدأ بالدعوة النبوية فاصطبغت العقائد بصبْغتها حتى كأنها لم تسمع قط قبل ذلك فى عهود الكهانات والهياكل . وكان توحيد ابراهيم إيمانا بإله يعلو على ملوك الأرض ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعا ، لأنه أعلى من كل عالٍ فى الأرضين أو فى السماوات ولكنه قريب من كل إنسان .

إن هذا التوحيد قد رفع مكانة الإنسان فى ميزان الخليقة فليس فى الكون إلا خالق ومخلوق ، وهو أشرف مخلوق عند الله ، بفضيلة واحدة ، وهى فضيلة الضمير الذى يميز بين الخير والشر ، وعمل الخير هو وسيلته إلى الله(١) .

ولقد وردت قصة ابراهيم ودعوته إلى الفطرة السليمة وإلى التوحيد فى سور كثيرة تتراوح بين الإيجاز والتفصيل ، فى بيان

---

(١) ابراهيم أبو الأنبياء ، عباس محمود العقاد ص ٣٠٩ دار الكتاب العربى ـ بيروت .

معجز ، وأسلوب تعبيرى بلغ غاية الكمال .

وتلك هى المواضع التى وردت فيها قصة إبراهيم عليه السلام .

● جاء ذكر ابراهيم فى سورة البقرة مفصلا وموزعًا على السورة كلها .. ولم يأت فى السورة دفعة واحدة لأغراض دينية واضحة .

ولقد ورد الذكر فى الآيات الآتية . سورة البقرة آيات ... ١٢٤ – ١٣٤ . من قوله تعالى **﴿وإذ ابتَلَى ابراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتمَهُّن قَالَ إنى جاعِلُك للنَّاسِ إمَامًا ، قَالَ وَمنْ ذرِّيَتِى ، قالَ لا ينالُ عهْدِى الظَّالمين﴾** إلى قوله تعالى **﴿تْلك أمَّة قد خَلَتْ لَهَا ما كسبَتْ ولكُم مَا كسبْتُم ولا تُسْأَلُون عمَّا كَانوا يَعْملُون﴾**

وجاء ذكر ابراهيم فى آية « ٢٦٠ » من سورة البقرة أيضا كما تكرر فى آية « ٢٥٨ » من سورة البقرة أيضا .

● وفى سورة آل عمران ورد ذكره فى آيات (٦٥) – (٦٨) . وفى آيتى (٣٣ – ٣٤) ، وفى آيتى ٩٥ ، ٩٦ .

● وورد ذكر ابراهيم عليه السلام فى سورة النساء فى آية واحدة هى آية رقم (١٢٥) .

● وفى سورة الأنعام جاء ذكره مفصلا ومكررًا ، وورد معه بعض الأنبياء من ذريته ، وذلك فى آيات ٧٤ – ٨٩ .

من قوله تعالى **﴿وإذْ قَالَ ابراهيمُ لأَبيهِ آزَرَ أَتتخِذُ أصْنَامًا آلهةً إنىَّ أراكَ وقَوْمَك فى ضَلالٍ مُبين﴾** إلى قوله تعالى **﴿أُولئِكَ الذِينَ آتَيْنَاهُم الكِتَابَ والحُكْمَ والنبوّةَ فإنْ يكفُر بِهَا هؤُلاءِ فَقدْ وكَّلْنا بَها قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرين﴾**

وتكرر الذكر فى نفس السورة فى آية رقم (١٦١) .

- وفى سورة التوبة جاء ذكره فى آية واحدة وهى رقم (١٢٤) .
- وفى سورة هود وردت قصة إبراهيم عليه السلام مع الرسل الذين بشروه باسحاق وذلك فى آيات (٦٩) - (٧٦) .

من قوله تعالى ﴿ولقد جاءتْ رُسُلُنا ابراهيمَ بالبُشْرَى﴾ ..... إلى قوله تعالى ﴿.. إنّه قد جَاء أَمْرُ ربِّكَ وإنَّهم آتِيهِم عَذابٌ غيرُ مرْدُود﴾

- وفى سورة إبراهيم جاء ذكر الآيات مرتبطا بموقفه من هاجر وابنها فى الآيات ٣٥ - ٤٠ .

من قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ ابراهِيمُ ربِّ اجعَلْ هَذَا البلَدَ آمِنًا﴾ إلى قوله تعالى ﴿ربِّ اجْعَلْنى مُقِيمَ الصلاةِ وَمِنْ ذُرِّيتى ، ربَّنا وتقبَّل دُعَاء﴾

- وفى سورة الحجر آيات تتناول موقف إبراهيم وضيفه . وذلك فى آيات ٥١ - ٥٦ .

من قوله تعالى ﴿وَنَبِّئْهم عَنْ ضَيفْ ابْرَاهِيم﴾ إلى قوله تعالى ﴿قَال ومَنْ يقْنَطُ منْ رَحْمَةِ رَبِّه إلاَّ الضَّالون﴾

- وفى سورة مَرْيم جاء ذكر ابراهيم فى آيات ٤١ - ٥٠ من قوله تعالى ﴿وَاذْكُر فى الكِتَاب ابراهيمَ إنَّه كانَ صِدِّيقًا نبيًّا﴾ إلى قوله ﴿وَوَهَبْنا لَهُم مِنْ رحْمتِنَا وجَعَلْنا لهُم لسَانَ صِدْقٍ عليًّا﴾
- وفى سورة الأنبياء ورد ذكره مفصَّلا فى جانبى الدعوة ونجاته من النار ، وذلك فى الآيات (٥١) - (٧٣) .

منْ قوله تعالى ﴿ولَقَد آتَيْنَا ابراهيمَ رشْدَهُ منْ قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمين﴾ إلى قوله تعالى . ﴿وجَعَلْناهُم أَئمةً يهدُونَ بأَمْرِنا وَأوحَيْنَا

إليْهم فِعْل الخيرات وإقامَ الصلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ وكَانوا لَنا عَابِدين﴾

● وفى سورة الحج ورد ذكـره فى مجال الحج فى آية واحـدة رقـم (٢٦)

● وفى سورة الشعراء جاء ذكر ابراهيم فى إسهاب وذلك فى مجال الدعاء من آيات (٦٩) – (١٠٢) .

قال تعالى ﴿واتْلُ علَيْهم نبأَ إبراهيم . إذْ قَال لأَبِيه وَقَوْمه ما تعبُدُون﴾ إلى قوله تعالى . ﴿فلَوْ أنَّ لنَا كرةً فنكونُ منَ المؤمنِين﴾ فى سورة العنكبوت جاء ذكر إبراهيم فى آيتى ١٦ – ١٧ وآيتى ٢٤ – ٢٥ وآية ٢٧ .

● وفى سورة الصافات ورد ذكر ابراهيم فى مجال تحطيم الأوثان وذلك فى آيات ٨٣ – ٩٩ .

من قوله تعالى : ﴿وإنَّ منْ شِيعَتهِ لإبراهيم﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وقَالَ إنِّى ذاهِبٌ إلى ربِّى سيَهْدِين﴾

● وفى سورة الصافات أيضا ورد ذكر ابراهيم عليه السلام فى مجال الفداء باسماعيل ذبحا ونجاته بإنزال الكبش رضىً من الله ومنًّا . وذلك فى آيات (١٠٠ – ١١٣) .

من قوله تعالى ﴿ربِّ هبْ لى من الصَّالحِين . فبشَّرْناهُ بغُلامٍ حليم﴾ إلى قوله تعالى ﴿وبَاركْنا علَيه وعلَى اسْحَاق ومنْ ذُرِّيتهِما مُحْسِن وظالمٌ لنَفْسِه مُبين﴾

□ وفى سورة (ص) ورد ذكره فى آيات (٤٥) – (٤٧) .

□ وفى سورة الزخرف ورد ذكره فى آيات ٢٦ – ٢٨ .

□ وفى سورة الذاريات جاء ذكر ابراهيم فى آيات ٢٤ – ٣٧ من قوله تعالى ﴿هلْ أتَاكَ حديثُ ضَيْف إبْراهِيمَ المكَرمين﴾ إلى قوله تعالى

﴿وتَركْنَا فيها آيَةً للذين يخافُون العَذَابَ الأَلِيم﴾

- □ وفى سورة النجم ورد ذكر ابراهيم فى آيتى ٣٦ ـ ٣٧ .
- □ وفى سورة الممتحنة ورد ذكره فى آية رقم ٤ .
- □ كما جاء ذكره فى سورة النحل فى آيات ١٢٠ ـ ١٢٣ .

فضلا عن الإشارات السريعة التى يذكر فيها إبراهيم ضمن الأنبياء والرسل[1] .

- وفى هذا الإطار الإشارى ورد ذكره فى سورة البقرة آيات ١٣٥ ـ ١٤٠ .
- وفى سورة آل عمران آية ٩٧ .
- وفى سورة النساء آيات ٥٤ ، ١٥٣
- وفى سورة التوبة آية ٩٠ .
- وفى سورة الأعلى آية ١٩ .

والمغزى الإشارى هذا يعنى أنه ماكان لنبوة واحدة أن تؤدى رسالة التوحيد وتفرغ منها فى عمر رجل أو عمر جيل وإنما هى نبوة بعدها نبوات . فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة وما من عهدين من عهود الإيمان إلا وبينهما تمهيد وتعقيب ، ولكن الأمانة التى اضطلع بها الخليل ابراهيم حادث جديد ، ذلك الحادث هو أمانة الرسالة النبوية ، أمانة نفس حيَّة تخاطب نفوسًا حيَّة باسم الإله الذى يتوجه إليه عباده فى كل مكان .

وهذه الدعوة تستلزم وجود ابراهيم متصلا بمن بعده . هذه

---

(١) انظر تفصيل آيات القرآن الحكيم ، نقل محمد فؤاد عبد الباقى ص ٦٤ ـ ٧٠ .

الدعوة الحنيفية قال عنها رسول الله ﷺ (**بعثت بالحنيفية السمحة**) .

● وفى مجال التطبيق . سنختار من قصة ابراهيم أربعة مواقف أساسية وثابتة ، وهى المواقف التى ورد ذكرها بالقرآن الكريم . وهى مواقف خاصة بمجال الدعوة إلى التوحيد وبناء البيت . ذلك أن قصة إبراهيم سكتت عن حياته الخاصه وزمنه الخاص من حيث الولادة والتطور فى النمو ، والوفاة ، وغير ذلك مما يطرأ على الشخصية فى مجال الحياة وتيارها ، انطلاقًا من طبيعة القصة القرآنية ، المبنية على قاعدة الاختيار والانتقاء لما يلائم الغرض الدينى .

● **الموقف الأول** ●

قال تعالى **﴿وَإِذْ قَالَ ابراهِيمُ لأَبِيه آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلهَةً إنّى أراكَ وقَومَكَ فى ضَلالٍ مُبِين . وكَذَلك نُرِى إبراهيم ملكُوتَ السَّموات والأَرْضِ وليكُونَ مِن الموقِنِين . فلمّا جَنَّ عَليه اللّيل رَأَى كَوكَبا قَال هَذَا ربىِّ فلمّا أفَلَ قَال لا أُحِبُّ الآفِلين . فلمّا رأى القَمَر بازغًا قَال هَذا رَبىّ فلمَّا أَفَل قَالَ لَئِنْ لمْ يَهْدِنِى ربىِّ لأكُونَنَّ مِن القَوْمِ الضَّالين . فلمَّا رأَىَ الشمْس بازِغةً قَالَ رَبىِّ هَذَا أكْبَر فلمَّا أفَلَتْ قَال يا قَوم إنىِّ برىءٌ ممَّا تشركُون . إنّى وجَّهتُ وَجْهِى للذّى فَطَر السَّمٰوات والأَرْضَ حنيفًا ومَا أنَا منَ المشْركِين . وَحَاجَّه قومُه قالَ أتُحاجونّى فى الله وقَدْ هَدَانِ ولا أخافُ مَا تُشْركُون به ، إلاَّ أنْ يشاءَ ربىّ شيئًا ، وسعَ ربى كلَّ شَىْءٍ عِلْما أفَلاَ تذكَّرون﴾** (١)

---

(١) سورة الأنعام آيات ٧٤ – ٨٠ .

لقد اختلطت العبادات قبل إبراهيم وفى زمانه اختلاطًا شديدًا حيث غاب عن الناس التوحيد وعبدوا الشمس والقمر ، أو أحدِهما ، وجهلوا التوحيد فعبدوا الأصنام ، وعبدوا الملوك .. وتعددت الأرباب . وانطمست الفطرة فى النفوس .

● ولقد أقام القوم الجاهلون للكواكب تماثيل لا تغيب عن أبصارهم إذا غابت الكواكب فعبدوها مع عبادة الكواكب على سبيل التقريب والتمثيل[1] . ﴿**ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون**﴾ .

ولقد كان للقمر منزلة بينهم ذلك أن عبادة القمر سابقة لعبادة الشمس خلافا لبادرة الظن الأولى إذ يسبق إلى الخاطر أن الشمس أكبر وأحق أن يُبْدَأ بها فى العبادة[2] .

وفى الآيات القرآنية السابقة دليل واضح على اختلاط العبادات ووجودها فى وطن واحد ، كعبادة الأصنام ، وعبادة الكواكب ، وعبادة القمر وعبادة الشمس وعبادة الملوك .

أما عن عبادة الملوك فى بابل القديمة وهو الموطن الذى بدأ منه ابراهيم عليه السلام دعوته (فإنهم كانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم هبطوا من السماء بعد الطوفان ، لأننا قرأنا الآثار وكشفنا عن الأحافير . وادعاء الملوك أنّهم آلهة يملكون زمام الحياة والموت[3] .. وارد فى القرآن الكريم فى قوله تعالى فى مجال المواجهة بين ابراهيم وملك القوم ﴿**إذْ قَالَ ابراهِيمُ ربِّى الذى يُحْيِى ويُميت قَالَ أنَا أحْيِى وأُميت**﴾ .

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص ٢٨٠ .
(٢) إبراهيم أبو الأنبياء ص ٢٧٩ .
(٣) إبراهيم أبو الأنبياء ص ٢٨١ .

فى هذا الجو الوثنى المختلط فى أنواع العبادات وأشكالها جاء ابراهيم بدعوته . وها هو ابراهيم بعد أن دخلته جذوة الإيمان يبصر حواليه فيجد الأصنام حوله ، تماثيل للكواكب والآلهة تملأ الأماكن وتُقدم إليها القرابين ، وتحاط بطقوس كهنوتية غامضة . ولقد أدرك ابراهيم حقائق الفضائل الكبرى واهتدى إلى الحقيقة الأولى التى يجب ألاَّ يختلف عليها أحد ، واعتزم أن يصحح العقيدة الفاسدة التى شاعت بينهم عن الله .. فأعلن ان الله واحد ، وأن الله هو خالق الكون ، و إذا وُجِد كائن آخر ينفع الناس فإنما يفعل ذلك بإذنٍ من الله وليس بقُدْرَة من عنده[1] .

● ويبدأ ابراهيم موقفه الإيمانى المجابه للعبادة الوثنية المختلطة ، بأن يحاور أباه آزر منكرا عليه وعلى قومه أن يتخذوا آلهة أصنامًا يعبدونها . فكيف يا أبى تفعل هذا وتجعل من الصنم ربًّا تعبده دون الله الذى خلقك وسواك ورزقك ؟ إنك يا أبى وقومك قد ضللتم عن الحق وانحرفتم عن الطريق الصحيح .

إن فطرة ابراهيم السليمة تنكر ابتداءً أن تكون هذه الأصنام آلهة فما هى بالتى تستحق أن تعبد ، لقد أحس ابراهيم بفطرته ضلال قومه فاستنكر ذلك ، واشتد على أبيه وهو الحليم . ولكن العقيدة تسمو فوق مشاعر الأبوة والنبوة .

واستحق ابراهيم بفطرته السليمة وبإنكاره لعبادة قومه ، أن تتكشف له حقيقة الملك ، ملك السموات والأرض حتى يتصل

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص ١٥١ .

قلبه وفطرته بدلائل الهدى فى هذا الكون .

● وتمضى القصة لتبين لنا صورة لنفس إبراهيم وقد ساورها الشك فى عبادة قومه ، وهى تميل إلى العزلة فى الليل ليعيش ابراهيم مع نفسه وتأملاته ومع الجديد الذى غزا وجدانه ومشاعره ..

وها هو الليل يسدل أستاره والظلام يطمس كل شىء وابراهيم فى عزلته يهمه هاجسه الفطرى الدينى ، ويرى الكوكب لامعًا مضيئًا فينجذب إليه ، ويقول هذا ربى إنه أعظم شأنًا وأكثر ارتفاعًا من الأصنام ، ما أعظم بهاءه . ولكن إبراهيم يفاجأ بأفوله فيمضى عنه ، إذ كيف يكون ربا للخلائق ويغيب عنها ؟ وتتكرر التجربة مع ابراهيم فها هو القمر يسطع ليلا ويسكب نوره الفضى على الكون كلّه ، ويترقرق قلب ابراهيم مع الضياء الغامر ، إنه قمر يستحق أن يكون ربًا . وظل يمتع النفس والقلب بالضياء .. ولكنه كغيره أفل وغاب وترك الكون مظلما . ومضى عنه . إذ كيف يكون ربا للخلائق ويغيب عنها ؟ ويحتار إبراهيم من يستحق العبادة ؟ إنه يحتاج إلى العون ، وطلب الهداية من ربّه . وتتكرر التجربة مرة أخرى مع كوكب ضخم هو الشمس ، إنها تبدو فى عينه أعظم الكواكب وأكبرها ــ إنها تستحق العبادة بضوئها ودفئها وجرمها أن تكون ربًا ! ويفاجأ كما فوجىء بأن هذا الجرم الضخم يمضى إلى الأفول ، ويمضى عنه إذ كيف يكون ربًا للخلائق ويغيب عنها ؟ .

وهنا تدرك ابراهيم شرارة الايمان الحق بعد أن نظر فى أمور الكواكب واستدل من أفولها أنها مخلوقات وراءها خالق واحد هو خالق الكون كله ، فتبرأ ابراهيم من قومه وعبادتهم وأصنامهم .

واستطاع بذلك أن يجادلهم مجادلة حسية ومشهودة ، وأن يبين خطأ العبادة وارتكاس العقيدة . وتوجه إبراهيم إلى فاطر السموات والأرض ، فلا تردد ولا حيرة فيما تجلى للعقل من تصور مطابق للحقيقة التى فى الضمير .

لقد اطمأن إبراهيم واستراح وزال قلقه بعدما رأى الله فى قلبه وعقله وفى الوجود من حوله .

وها هم قومه يأتون إليه ليجادلوه فى اليقين الذى استقر فى قلبه وضميره وحاجوه فى دينه ، وخوفوه آلهتهم وحذروه عذابهم وهو يواجههم فى رسوخ إيمان ، وثبات عقيدة . ويستنكر ابراهيم من قومه أن يتجرأوا ويجادلوه فى الله ، وهو الذى هدانى وغمر ضميرى ووعيي والكون كله . إنى لا أخاف منكم ولا أرتجف من آلهتكم المزعومة التى لا تنفع ولا تضر ولا تبصر ولا تسمع . إلا أن يشاء ربى . لقد أحاط علمه بكل شىء .

وهكذا ناظر إبراهيم قومه لإقامة الحجة عليهم فى بطلان عبادتهم ، وهى حجة ألهمها الله لنبيه ليدحض بها حجتهم التى يجادلونه بها[1] .

وهذا الموقف من القصة يعالج غرضًا دينيا أصيلاً من أغراض القصة القرآنية وهو الدعوة إلى التوحيد الخالص لله ، ونبذ الشرك والضلالة ، وترك الأصنام والأوثان ، . ولقد عولج الموقف فى أسلوب قصصى باهر ، حيث رسمت الآيات الكريمة مشهدًا رائعًا

---

(١) انظر فى ظلال القرآن الجزء السابع من المجلد الثانى ص ١١٣٧/١١٤٢ طبعة دار الشروق وكذلك صفوة التفاسير الجزء الأول ص ٤٠٠ ـ ٤٠٣ .

للفطرة السليمة وهى تبحث عن إلهها الحق الذى تجده فى أعماقها بينما هى تصطدم فى الخارج بانحراف العقيدة وانطماس القلوب .

وفى القصة أيضا إيناس للرسول وتسلية له ، فهو أيضا يواجه قومه وقد اختلطت فيهم الأديان ، وعبدوا الأصنام والأوثان ، وارتكست قلوبهم . كما فيها بيان لتدرج النفس الإنسانية فى الاتجاه إلى طلب الحقيقة الإلهية .

وإذا كانت القصة قد تكررت فى مواضع كثيرة فإن التكرار هنا لا يعنى التماثل التام . بل إن هذا الجزء من القصة متمم للأجزاء الأخرى ومتناسق مع الموقف الذى جاء فيه . إن المتكرر فى أجزاء القصة على مدار السور القرآنية هو شخصية ابراهيم نفسه . حيث بدأ بنفى عبادة الأصنام . وبيان أن العقل الضال وراء ذلك . وبين أن طريق اليقين يبدأ بالشك إلى أن يصل إلى اليقين .. وتلك مناظرة عقلية بحته تناسقت مع جو سورة الأنعام كلها ، وهى السورة التى تعرض حقيقة الألوهية فى مجال الكون والحياة ، فموضوعها منذ البدء إلى المنتهى هو موضوع العقيدة .

ومن ثم فإن التكرار هنا مرتبط بغرض دينى متناسق مع جو السورة الذى ورد فيها .

• الموقف الثانى •

قال تعالى ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا ابراهيمَ رشْدَهُ منْ قبل وكُنَّا به عَالمين . إذْ قال لأَبيه وقَوْمِه ما هَذَه التمَّاثِيل التِى أنْتُم لَهَا عاكِفُون . قَالُوا وجَدْنَا آباءَنَا لهَا عَابِدين . قالَ لقَدْ كُنْتم أَنتُم وآبَاؤُكم فى ضَلاَلٍ**

مُبِين . قَالُوا أَجِئْتَنا بالحقّ أمْ أنتَ منَ اللاَّعبين . قالَ بلْ ربُّكم ربُّ السَّمٰوات والأَرضِ الذى فطَرهُنّ وأنَا على ذٰلِكُم منَ الشَّاهدين . وتَاللهِ لأكيدَنَّ أصنَامَكم بعْد أنْ تُوَلُّوا مُدْبِرين فجعَلهم جُذاذًا إلاَّ كبيرًا لهُم لعلَّهم إليه يرجعُون . قَالُوا منْ فَعَل هَذا بِآلهتِنَا إنَّه لمنَ الظَّالمِين . قَالوا سَمِعْنا فتًى يَذْكُرهم يُقَالُ له ابراهيم . قالوا فَأْتُوا به علَى أعْيُن الناسِ لعلَّهم يَشهَدُون . قَالُوا أأنتَ فعلْتَ هذا بآلهتِنَا يا إبراهيم . قالَ بل فَعَلَه كَبِيرهم فاسألُوهُم إن كانُوا ينطِقُون . فرجَعُوا إلى أنْفُسِهِم فقَالُوا إنَّكم أنتُم الظَّالمون . ثمّ نُكِسُوا علَى رُءوسهم لقَدْ عَلمْتَ ما هَؤلاءِ يَنْطِقون . قالَ أَفَتَعْبُدون منْ دونِ الله مالاَ ينفعُكم شَيْئًا ولا يضركُم . أفٍّ لكُم ولِمَا تَعْبُدون منْ دُونِ الله أفلا تَعْقِلون . قَالُوا حَرِّقُوه وانْصُروا آلهَتَكم إن كنتم فَاعِلين . قُلْنَا يَانَارُ كونى بردًا وسلامًا على ابْراهيمَ . وأرادوا به كَيْدًا فجعَلْنَاهُم الأَخْسَرِين﴾ (١)

هكذا حمل ابراهيم بعد اطمئنان القلب .. الاستعداد لتحمل الأمانة ، فانتقل من طور القول إلى طور الفعل . فالفعل هو محور هذا الموقف . وهو موقف ينبنى على جدل واضح ، بين الحق والباطل ، وبرز فى هذا المجال معجزة خارقة اختص بها ابراهيم ، حيث علا الحق وظهر ، وسفل الباطل وانطمس .

ومن اليسير أن نتخيل حنكة الأب وثورة الفتى إبراهيم ، فالأب يتابع سادات القوم فى وقتهم وعصرهم ويجرى معهم فيما يجرون ،

---

(١) سورة الأنبياء آيات ٥١ ـ ٧٠ .

فهو من عشيرة بادية تطغى عليها عشيرة أقوى ، حيث طغت على مدينة (أور) العشائر القوية . وإذا كان هذا موقف الأب فإن الإبن يأبى إلا ما أعتقد وينفر من المراء والرياء[1] ، ويحفزه إلى الشمال أمل فى صلاح العقيدة .

والموقف الذى نحن بصدده يصور هذا الصراع المشتجر بين ابراهيم وأبيه وقومه .

يتوجه إبراهيم إلى أبيه وقومه ساخرًا من التماثيل التى يعبدونها ، فهى لا تعدو أن تكون أحجارًا صماء لا تعى ولا تحس . ولم يجد القوم جوابًا إلا ما يردده التابعون الذى يلغون عقولهم ولا يفكرون ، لقد قالو أنهم عبدوا تلك الأحجار تقليدًا واتباعًا للآباء والأجداد . وقولتهم دلالة على التحجر العقلى والجمود النفسى . لقد تكبلوا بالماضى وبالحجر . والتوحيد تحرير وانطلاق إلى الله .

وواجههم ابراهيم فى قولته الصريحة بأنهم هم وآباؤهم قد ضلوا الطريق الصحيح ، الطريق إلى الله الواحد الأحد . ولأن عقول القوم معطلة ونفوسهم مظلمة ، تساءلوا فى شك يزعزع ما عندهم من ضلال .. إن كانوا على الهدى يريدون أن يمضوا . أأنت يا إبراهيم جاد فيما تقول ؟ لا نخالك إلا لاعبا ! . وإنك لتمزح فى أمور لا يجب فيها المزاح .

ولكن إبراهيم متيقن مما يقول عارف بربه واثق به فيرد عليهم فى ثقة قائلاً إن من يستحق العبادة هو الله . رب الناس ورب

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص٢٩٣ .

السموات والأرض . وهو واثق ويشهد على ذلك ، ذلك أن كل ما فى الكون ينطق بوحدانية الخالق الذى يدبر الكون ويصرفه .

ويقرر ابراهيم أمامهم فى هذا الحوار الحاد أنه سيكيد للأصنام ، ونفذ ابراهيم ما قرره ، وتحول القول إلى فعل ، ومضى ابراهيم ثائرًا غاضبا إلى الأصنام مستهزئًا بها ، متعجبا من قومه كيف ينحدرون بعقولهم هذا المنحدر الهابط فى مجال العبادة . إن الأصنام ـ الآلهة ـ أمامه أحجار مكدسة على أشكال وهيئات يلعب ويعبث ولا حركة ولا نأمة . وتحولت الأصنام على يديه إلى قطع صغيرة ، ثم ترك الفأس معلقة فى رقبة كبير الأصنام ، الآلهة ، إمعانا فى السخرية والاستهزاء .

وكان الطبيعى أن يراجع القوم عقيدتهم الوثنية ، ولكن سيطرة الخرافة على عقولهم جعلتهم يثورون عندما رأوا هذا المشهد وتساءلوا عمن يمكن أن يفعل ذلك بآلهتهم ؟

ـ من فعل بآلهتنا تلك الفعلة القاسية ؟

وينبرى من القوم من يلقى بالأمر على إبراهيم .

ـ لقد سمعنا ابراهيم ذلك الفتى يذكرهم بالسوء .

وينفعل القوم ، وتأخذهم العزة بالإثم وهم يرون الأصنام جُذاذًا لا تنطق وقلل القوم من شأنه حين قالوا ، إنه فتى صغير يقال له ابراهيم . وبلغت الثورة مداها ، واشتد الغضب بالقوم وانطمست عقولهم وتجمدت نفوسهم . ولم يخطر على بال أحد أن يسأل إذا كانت هذه الآلهة لا تستطيع أن تدفع عن نفسها أذى فكيف تعبد إذن ؟ .

ـ إذن إئتُوا به ، وعلى رءوس الأشهاد ، فمن يفعل فعلته يشهر به قبل أن ينزل به العقاب .

وكأنما الأمر كان مواجهة حاسمة ، أوكأنما نحن فى ساحة للقضاء هم يحكمون ويصدرون الأحكام وينفذونها ، بلا ضمير ولا رادع .

ـ هل حطمت الآلهة يا ابراهيم ؟

وتخيل معى نظرة إبراهيم إليهم ، تلك النظرة التى تدل على السخرية والتهكم من أقوام لا تدرى ماذا تفعل ولا ماذا تقول .

ويشير إبراهيم إلى الصنم الأكبر الذى علقت برقبته الفأس .

ـ بل فعله كبيرهم .

ولأول مرة يحسون باهتزاز ، فرجعوا إلى أنفسهم لعلهم يتدبرون ، ولكنهم سرعان ما انقلبوا على رءوسهم فلا عقل ولا تفكير .

ويعنف ابراهيم بهم . فليس هناك من دليل محسوس ومشهد مشهود أبلغ مما يرونه ويتحاورون حوله .

ـ إنكم طغاة جبابرة ، تعبدون ما لا ينفعكم ولا يضركم ، أفٌّ لما تفعلون .

إنكم لا تعقلون قبيح ما تصنعون .

ولجأ القوم إلى القوة الغاشمة وصاحوا .

احرقوه ، احرقوه ، اشعلوا النار وألقوه فيها .

● وأُلقى به ، وجاء الأمر الإلهى إلى النار فكانت بردًا وسلامًا على ابراهيم ولقد نجى الله ابراهيم من كيد قومه ، وباءوا هم بالخسران

المبين .

● وينْبغى أن نلمح شيئًا يستوقفنا فى قصة ابراهيم ، ووعيد الدولة له بالاحراق إن لم ينته عن تسفيه أربابها ، وأصنامها وتماثيلها .

فمن المسلم به أن الاحراق عقوبة مقررة فى شريعة بابل ، وأن النار لم تكن مجهولة فى بلد من بلاد الأنبياء الآخرين ، ولكنهم لم يتعرضوا للإحراق فى غير أرض بابل ، ولم يرد خبر قط عن نبى غير ابراهيم توعده قومه بإحراقه . فلقد انفرد ابراهيم بعقوبة الاحراق دون قصص الأنبياء[1] .

ولقد وقعت المعجزة لابراهيم . وحين تقع المعجزة يجب أن يكون الناس بُصَراء بحقيقتها . فمقياس المعجزة ليس أن تسأل أهى ممكنة أم لا ؟ بل المقياس الحق أن تسأل عن الحكمة منها . فالذى يدبر الكون كله يتنزه عن العبث فلا يصنع شيئًا لغير حكمة . ولا تفوت هذه الحكمة إدراك الناس ما داموا هم المقصودين بإدراكها . فأعمال الله غير خاضعة لمقاييس البشر وعلمهم القليل المحدود .

ولقد جاءت قصة ابراهيم متلائمة تماما مع سياق سورة الأنبياء ، فموضوع السورة هو ميادين التوحيد وربط العقيدة بالنواميس الكونية . ومن ثم توجه الآيات الأنظار إلى الوحدة التى تربط بين النواميس جميعها ، والتى هى دلالة على وحدة الخالق المدبر . ومن ثم يستعرض السياق القرآنى فى السورة الكريمة أمة

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص ٢٩٥/٢٩٦ .

الرسل الواحدة فى سلسلة طويلة استعراضًا يطول أو يقصر لإبراز هدف واحد هو إدراك الحق الأصيل فى العقيدة التى جاء بها محمد[1] . ووحدانية الله فى كل الأديان ، ومواجهة الأنبياء لأقوامهم ، وتماثل وسائلهم فى الدعوة إلى توحيد الله وعبادته .. ثم ان فيها إيناسًا للرسول وتسلية له .

ولقد تحدثت الآيات عن قصة ابراهيم فى أسلوب مشوق فيه نصاعة البيان وقوة الحجة والبرهان ، ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة فى خنوع واستسلام ، ومن ثم ففى قصته عبر وعظات . ولقد جاء الحوار شديدًا قويا ليتلاءم مع الموقف الثانى وهو تحطيم الأصنام وإلقاء ابراهيم فى النار ، ليتم التناسق بين الموضوع وأداة التعبير.

وفى هذا الجزء من قصة ابراهيم فإننا لا نلمح فيها التكرار بمعنى التماثل وإعادة المعنى مرة أخرى . فالموضوع واحد تكرر لأن ابراهيم هو محور الأحداث جميعا ، ولكن الموقف حين يتكرر يحمل معنى جديدًا وهدفًا جديدًا ، وغرضًا جديدًا ، وأسلوبا جديدًا ، وإيقاعًا جديدًا ، يتلاءم مع جو السورة وموضوعها وإيقاعها العام الذى ورد فيه . إنها قصة واحدة وزعت فى سور شتى لأن النسق القرآنى اقتضى ذلك التوزع ، إذ يكون كل جزء مكونا لقصة ذات عبرة مستقلة فى ذاتها ، فهى قصة واحدة الموضوع فى قصص متعددة العبر[2] .

---

(١) فى ظلال القرآن الجزء ١٧ المجلد رقم ٤ ص ٢٣٦٥ .
(٢) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٦٧ .

الموقف الثالث

(ا) قال تعالى ﴿واذكُر فى الكتابِ ابراهيمَ إنَّه كانَ صدّيقًا نبيًّا . إذْ قَال لأبيه يَا أَبتِ لمَ تعبُد ما لا يْسمعُ ولاَ يُبْصِرُ ولاَ يُغنى عنْك شيْئًا . يا أبتِ إنِىّ قَد جَاءَنى منَ العِلمِ مَا لمْ يَأْتِك فاتّبِعْنى أَهْدِكَ صِرَاطًا سويًا . يا إبَتِ لا تعبُد الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كان للرحْمَٰن عصِيّا . يا أَبت إنّى أخَافُ أنْ يمسَّك عذابٌ من الرحْمَن فتكُون للشيطَان وَلِيّا . قَال أراغِبٌ أنْتَ عنْ آلهتى يا إبرَاهيمُ لئِنْ لمْ تنْتَه لأرجُمنَّك واهجرنى مَلِيّا . قالَ سلامٌ عليْك سَأستَغْفِر لك ربِىّ إنّه كانَ بى حَفِيّا . وأعْتَزِلكُم ومَا تَدْعُونَ منْ دُون الله وأدْعُو ربّى عسى ألاَّ أكُون بدُعاءِ ربِىّ شقِيّا﴾ [1]

فى هذا الجزء من قصة ابراهيم نرى الوداعة والحلم واللطف وهو يتوجه إلى أبيه بدعوته بعد أن اطمأن قلبا .

وكعادة قصص الأنبياء تبدأ القصة بتنبيه إلى رسول الله ﷺ لإدراك العظة والعبرة من سياق القصة وورودها على هذا النسق ضمن الموقف الذى جاءت فيه .

ولقد وصفت الآية الأولى ابراهيم بأنه صديق ونبى ، ومجال الإشارة التنبيهية هنا ، تذكير العرب بفضل إبراهيم وبيان دعوته إلى الوحدانية ومهاجمته للأوثان والأصنام الآلهة . والعرب ينتسبون إلى ابراهيم ، ومن ثم تصبح المفارقة أمرًا مثيرًا للفكر وللتعقل . إذ كيف ينتسبون إليه وينسون دعوته ويعودون إلى ماكان يهاجمه ويحاربه ؟

---

(١) سورة مريم آيات ٤١ ــ ٤٨ .

ويقفون من محمد الرسول هذا الموقف المزرى ؟ ويتوجه ابراهيم إلى أبيه متلطفا فى خطابه يحاول أن يهديه إلى الخير مستميلا إياه نحو الهداية .. يا أبى لم تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر ولا يملك لك نفعا أو يدفع عنك ضرا ؟ .. إننى يا أبت لا أتحدث إليك من تلقاء نفسى إنما هو العلم الذى جاءنى من الله فهدانى ، وليس هناك يا أبتى من غضاضة أن تتبعنى ، فإنما أنت تتبع الهدى والخير وتمضى إلى الطريق الحق . إنك إن أطعتنى بخوت من المهالك . يا أبتى لا تطع الشيطان فالشيطان عصى الله ، وهو يعصى عباده ، إنما أنا أهديك إلى طريق الرحمن ، والشيطان يدعوك إلى طريق الباطل .

ويمضى ابراهيم فى حديثه إلى أبيه وقد تدرج معه فى حالته بألفاظ رقيقة وبعبارات مهذبة ، وبحرص شديد على عدم إغضاب أبيه بل إنه يسوق النصيحة فى لطف وتهذيب حرصًا منه على أبيه . فهو يحب أباه ، والنسق القرآنى حريص على إبراز هذا الحب . فتكرار كلمة « يا أبت » إنما هو إشعار بالتودد والحب والرغبة فى صونه عن العقاب وإرشاده إلى الصواب . وقد رتّب ابراهيم الكلام فى غاية الحسن لأنه نبهه أولا إلى بطلان عبادة الأوثان ثم أمره باتباعه فى الاستدلال وترك التقليد الأعمى ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير جائزة فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الاقدام مع رعاية الأدب والرفق[1] .

ولكن الدعوة بأرق الألفاظ وألطفها لا تصل إلى قلب الأب .

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٢١٩ .

فها هو يواجه ابراهيم بالاستنكار المصحوب بالتهديد وفى قول فيه غلظة وعناد . أنت تكره آلهتنا يا ابراهيم ، وتتجرأ عليها وإن لم تبتعد عن ذلك وأصررت عليه لأرجمنك بالحجارة ، ثم لتغرب عن وجهى .

بهذه الجهالة تلقى آزر الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القوة قابل القول المؤدب المهذّب ، وكذلك شأن الكفر مع الايمان ، وشأن القلب الذى هذّبه الايمان والقلب الذى أفسده الطغيان .

ولم يغضب ابراهيم ولم يفقد بره وعطفه بأبيه ، إذ قال لأبيه سلام منى عليك ، فلن ينالك منى أذى ولا مكروه ، ولا أقول لك ما يؤذى حرمة الأبوة ولكننى سأدعو الله سائلاً الهداية والغفران لك . وإذا كان وجودى إلى جوارى ودعوتى إلى الايمان تؤذيك فإننى سأعتزل القوم جميعا . واعتزل ابراهيم قومه وهجر أهله ودياره ، فلم يتركه الله وحيدًا بل وهب الله له ذرية وعوضه خيرًا .

وهاجر ابراهيم إلى أرض الشام ووهب الله له اسماعيل ثم اسحاق .. ومن بعد اسحاق يعقوب ، وكانت سلسلة النبوة التى ختمها رسول الله محمد ﷺ .

إننا فى هذا الجزء من قصة ابراهيم نجد رفق الدعوة التى تفيض بحنان البنوة فى عباراتها . وفى نغماتها الهادئة ، وفى معانيها العاطفية ولا يمكن أن يوجد فى أى لغة عبارات تفيض برفق الدعوة والعطف والرعاية بمثل هذه العبارات لأنها كلام العزيز الحكيم .

وبمقدار ما فى عبارات الابن من رفق واسترضاء كانت عبارات الأب مليئة بالجفاء والغلظة . والآيات توضح أنه ليس له أن يستغفر

لأبيه لأن كل امرئ بما كسب رهين ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وعفا الله عن إبراهيم وأمره بالبراءة منه ﴿فلمّا تبيَّن له أنَّه عدُوّ لله تبرأ منه إنَّ ابراهيمَ لأوَّاه حَليم﴾

(ب) قال تعالى ﴿ألَم تَرَ الَّذى حاجَّ ابراهيمَ فى ربِّه أنْ آتاهُ اللهُ الملكَ إذْ قَال إبرَاهيمُ ربّى الَّذى يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إبراهيمُ فإنَّ اللهَ يَأتى بالشَّمسِ مِنَ المشْرق فأْتِ بِهَا منَ المغْرب فبُهِتَ الذى كَفَر والله لاَ يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمين﴾ [1]

وهذا نوع آخر من الحوار يختلف عن الحوار الذى دار بين إبراهيم وأبيه إنه نوع من الحوار الذى يتحدى فيه إبراهيم ، الملك . ملك القوم الذى كان يعيش مَعهم والذى تقول عنه بعض الروايات أنه النمروذ[2] . ولقد جادل الملك إبراهيم عليه السلام فى وجود الله . وكان أولى بذلك الملك أن يحمد الله سبحانه على نعمة الملك التى أنعم الله بها عليه ، ولكنه واجه ذلك بالكفر والطغيان . وهذا سر العجب فى قوله تعالى ﴿ألم تر﴾ . والكلام موجه إلى رسول الله وإلى المؤمنين معه ، ليأخذوا العبرة مما حدث للأمم الخالية ، وليأتنس الرسول بما يُقص له ، تسلية وإيناساً . ويبدأ الحوار حول وجود الله واستحقاقه للعبادة والوحدانية .

يقول إبراهيم وهو يواجه الملك المتعنت الرافض للدعوة ، فى مجال الإعجاز والتعجيز ، وهو يتحدث له عن ظاهرتين مكرورتين معروضتين لحس الإنسان وعقله ؛ إنهما ظاهرة الإحياء والموت ..

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

(٢) انظر إبراهيم أبو الأنبياء ص ٦٤ – ٦٥ .

يقول إبراهيم : الله ربى ، خالق كل شيء وهو يحيى ويميت .
وإبراهيم يتحدث وهو يعى تماما أن صفة الموت والحياة إنما هى صفة خاصة بالله لا يشاركه فيها أحد . ولكن إبراهيم يصاب بالعجب حين يجادل الملك فى تلك الحقيقة السرمدية .

والملك وهو يسمع ابراهيم يورد حجته ، يرى نفسه حاكما وملكا وقادرًا على إنفاذ أمره فيهم بالحياة والموت ، إنه كما يرى عقله القاصر.. المتصرف فى شئون القوم فهو إذن ، حسب المنطق المعكوس ، الرب الذى يجب الخضوع له . ولقد علمنا سابقا أن عبادة الملوك كانت إحدى أنواع العبادات السائدة فى ذلك الزمان .

يقول الملك : وماذا فى ذلك ، فأنا أيضا أحيى وأميت .

وأشار بيده كما تقول الروايات [١] فجيء برجلين حكم على أولهما بالموت وترك الثانى حيا ، وأشار إلى إبراهيم ساخرًا ، انظر هأنذا أحيى وأميت . وحين رأى ابراهيم هذا العبث والتضليل ، وذلك الادعاء فى إيراد الأدلة وذلك الخداع والمماطلة ، ألقى عليه بدليل لا يحتاج إلى خداع أو إلى مواربة .

يقول ابراهيم : هأنذا أتحداك بدليل محسوس ، تشاهده صباحًا ومساء وإذا كنت تدعى الربوبية ، وإذا خيّل لك ذهنك أنك قادر على الاحياء والموت كما يفعل الإله الواحد الأحد ، فها هى الشمس أمامك تطلع كل صباح من المشرق مضيئة ، مرسلة دفئها إلى الكون ، فأت بها أنت من المغرب ولو لمرة واحدة تظهر فيها

---

(١) صفوة التفاسير جـ١ ص ١٦٥ .

سلطانك وقوتك .

وبهت الملك ، وهو يرى هذه الحجة الدامغة التى توقفه عند حجمه الطبيعى وتوضحُ له مدى عجزه الهائل . ووقف ساكنا حائرًا مندهشا لا يعرف كيف يجيب على هذا التحدى الدامغ ، وحقت كلمة الله على القوم الظالمين .

● إن هذا الجدل الذى يعرضه الله على نبيه محمد ﷺ وعلى جماعة المسلمين مثال للضلال والعناد ، وتجربة يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد فى مواجهة المنكرين .

(جـ) قال تعالى ﴿وإذْ قَال إبْرَاهيمُ ربِّ أَرِنى كيْف تُحْيى المْوْتى ، قَالَ أوَ لمْ تُؤمن قالَ بلَى ولكن ليطمئِنّ قَلْبِى قالَ فخُذ أربعةً منَ الطير فصُرْهُنّ إليك ثم اجعَلْ على كلِّ جَبَلٍ منْهُنَّ جزءًا ثم ادعُهُن يأتِينَك سعَيا ، واعلم أنَّ الله عزيزٌ حَكِيم﴾ (١)

وذلك موقف آخر من قصة ابراهيم ، وحوار من نوع آخر تماما ، إنه حوار مع ربِّه ، أليس إبراهيم خليل الرحمن ؟ إنه حوار المتأدب الخاشع ، الراغب فى المعرفة ، فقلبه مطمئن ووجدانه مترع بالإيمان بالله ، ولكن الحس المشاهَد يحب أن ينعم باليقين وبالظاهر معًا . والله لا يبخل على خليله بمطلبه .

إن إبراهيم يتشوق إلى سرّ الصنعة الإلهية . وحين يجيء هذا التشوق من إبراهيم الأواه الحليم فإنه يكشف عما يختلج أحيانًا من الشوق والتطلع لسرّ الصنعة الإلهية فى قلوب أقرب المقربين(٢) .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(٢) فى ظلال القرآن المجلد الأول الجزء الثالث ص ٣٠١ .

وهو تشوف لا يتعلق بوجود الإيمان ، ولا يرتبط ببرهان على وجود الله ووحدانيته وإنما هو شوق روحى إلى ملابسة السرّ الإلهى .

● يقول إبراهيم مناجيا ربه : إلهى جلّت حكمتك .. أنشدك اطمئنان الأنس إلى رؤية يد الله تعمل ، واطمئنان التذوق للسر المحتجب وهو ينكشف . إلهى أرنى بمشيئتك ، كيف تحيي الموتى ؟ .

● وجاءه النداء الإلهى فى صيغة عتاب مرضى عنه : أولم تصدق بقدرتى على الإحياء ؟

● وينتفض إبراهيم خاشعا ، متضرعا ويقول : بلى آمنت وآمنت ولكننى أردت أن ازداد بصيرة وسكون قلب برؤية ذلك .

ويستجيب الله لهذا الشوق والتطلع فى قلب إبراهيم . وأمر الله إبراهيم أن يختار أربعة من الطير ، وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن على الجبال المحيطة به ثم يدعوهن . فتتجمع أجزاؤهن مرة أخرى وترتد إليهن الحياة ويَعُدْن إليه ساعيات .

ورأى إبراهيم السر الإلهى يقع بين يديه ، طيور فارقتها الحياة ، تدب فيها الحياة مرة أخرى .

إنه أمر الله والناس لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء .

● إن هذا الجزء من قصة إبراهيم ، هو قصة النفس البشرية فى نبى الفطرة إبراهيم عليه السلام ، إذ النفوس ولو كانت مؤمنة تتمتع بكثرة الدليل لتزداد إيمانًا وإن كان أصل الإيمان قائما ، فزيادة البينات تزيد المؤمن إيمانًا وتزيد الجاحد كفرا وعنادًا[١]

---

(١) القرآن المعجزة الكبرى ص ١٦٤ .

(د) قال تعالى ﴿وَقَالَ إنّى ذَاهِبٌ إلَى رَبِّى سيَهْدِين . ربِّ هبْ لى منَ الصَّالحين . فبشرنَاه بغُلام حليم . فلمّا بلَغ معَه السَّعْى قَال يابُنَىَّ إنىّ أَرى فى المَنَامِ أنِّى أَذْبَحُك فانْظُر ماذَا تَرى قَال يا أبَت افعَلْ ما تؤْمر ستَجدُنى إنْ شاءَ الله منَ الصَّابرين . فلَمَّا أسْلَمَا وتَلَّه للْجَبين . ونَادْيناهُ أَنْ يا إبراهيم . قَدْ صدَّقْتَ الرؤيا إنَّا كذلك نَجْزِى المحْسِنِين . إنَّ هَذَا لهُوَ البلاءُ المبِين . وفَدَيْنَاهُ بذِبحٍ عظيم . وَتَركنا علَيه فى الآخرِين . سلامٌ علَى ابراهيمَ﴾[1]

تلك هى الآيات الكريمة التى تحكى جانبا من قصة ابراهيم مع ولده اسماعيل . إنها قصة الذبح والفداء . وفيها تبرز الطاعة ويتضح الاستسلام لله . حيث أمر الله ابراهيم أن يذبح ولده اختيارًا لقوة إيمانه ومقدرته على تحمل التضحية والصبر على البلاء المبين .

وها هو ابراهيم المقطوع من الأرض والوطن والأهل والقرابة . يتجه إلى الله يسأله الذرية الصالحة المؤمنة ، ويرزقه الله فى كبره وهرمه بغلام حليم . وما أن يأنس إبراهيم بولده حتى يرى فى المنام أنه يذبحه . وتلك كانت إشارة من الله إلى إبراهيم بالتضحية . وقبل إبراهيم الأمر فى قبول ورضى وطمأنينته . فلم ينزعج ولم يجزع . ويتوجه إلى ابنه فى اطمئنان ووثوق لأداء الواجب .

يقول إبراهيم : بُنَى .. اسماعيل .. لقد أمرت فى المنام أن أذبحك فانظر فى الأمر . وقل لى ما رأيك ؟ .

ويتلقى اسماعيل الأمر فى رضى واستسلام وفى يقين . وبالرغم

---

(١) سورة الصافات آيات ٩٩ ـ ١٠٩ .

من شبح الذبح الذى يطوف بالذهن فإن اسماعيل وهو يخاطب أباه لم يفقد أعصابه ، فقابل أمر أبيه بالمودة والقربى حين ناداه بكلمة يا أبت ثم هو أدب كامل مع الله ، حيث طلب من ربه الاستعانة على الأمر والصبر عليه .

يقول اسماعيل : يا أبت ابراهيم امض لما أمرك الله ، وقم بذبحى وإن شاء الله ستجدنى صابرًا .

وينتقل الموقف العصيب إلى خطوة حاسمة ، لقد مضى الحوار بين الأب وابنه وجاء وقت التنفيذ .

ومرة أخرى تتبدى الطاعة فى قمتها ، وها هو ابراهيم فى طمأنينة الرضى يكُب ابنه على جبينه استعدادًا للذبح ، والغلام يستسلم لقدره فلا يتحرك امتناعًا . ولم يبق إلا أن يذبح ويسيل الدم وتزهق الروح .

وهكذا يقع الابتلاء ويتم الامتحان ، ويجىء النداء الإلهى قد صدقت الرؤيا وحققتها والله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى فى النفس ما تكنه عن الله أو تعزه عن أمره .

والحكمة فى هذه القصة أن ابراهيم اتخذه الله تعالى خليلاً فلما سأل ربه الولد ووهبه له تعلقت شعبة من قلبه بمحبة ولده فأمر بذبح المحبوب لتظهر صفاء الخلة ، فامتثل أمر ربه وقدم محبته على محبة ولده فلا ينبغى أن يضن الإنسان بشىء فى سبيل العقيدة . ولا ينبغى أن يبطل القربان بالإنسان لأن الله لا يستحقه كما استحقته أوثان الجهالة بل يبطل لأن الله أرحم وأعظم من أن يتقبله فهو أعظم وأكرم من الإنسان .

وارتفاع الإنسان بهذه العبادة هو ارتفاع آخر يضاف إلى ارتفاعه بالتوحيد والتنزيه . ارتفاع من جانب القوة لا من جانب الضعف وسمو بالرحمة وبالعبادة إلى أعلى عليين[1] .

● الموقف الرابع ●

قال تعالى ﴿وإذْ ابْتَلى ابراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فَأَتمهُن قال إنى جاعلُكَ للنّاسِ إمَامًا . قَال ومنْ ذرِّيتى قالَ لا ينالُ عهدى الظَّالمِين . وإذْ جعْلنَا البيْتَ مثابةً للناسِ وأمْنًا واتّخذُوا منْ مقامِ ابراهيمَ مُصَلّى وعَهِدْنَا إلى إبراهيمَ وإسْاعيل أنْ طهّرا بَيْتِى للطَّائِفِين والعَاكِفين والركَّع السُّجود . وإذْ قَال ابراهَيمُ ربِّ اجْعَل هَذا بلدًا آمِنًا وأرزق أهْلَه منَ الثّمراتِ من آمَنَ مِنْهم بالله واليْوم الآخِرِ ، قالَ ومنْ كفَر فأُمَتِّعه قليلاً ثم اضطَّره إلى عَذَاب النَّار وبئْسَ المصِير . وإذْ يرفَعُ إبراهيمُ القَواعِدَ منَ البيْتِ وإسماعيلُ ربَّنا تقبَّل منَّا إنَّك أنتَ السمِّيعُ العليمُ . ربّنا واجْعلْنا مُسْلِمين لك ومنْ ذُريّتِنا أمَّةً مُسْلِمة لَكَ وأرِنَا مَناسكَنَا وتُبْ عَلْينا إنَّكَ أنْت التوّابُ الرحيم . ربّنا وابعَث فِيهم رسُولاً منْهم يتْلُو عليهم آياتك ويعلّمُهم الكتابَ والحكمَةَ ويزكّيهم إنَّك أنّتَ العزيزُ الحكِيمُ﴾[2]

إن هذا الجزء من قصة إبراهيم يرتبط بالعرب ، وما كان شرف العرب به وهو بناء الكعبة . فقد ذكر هذا البناء الذى قام به ابراهيم وعاونه ابنه اسماعيل ، وبابراهيم واسماعيل تشرف العرب بأنهم من سلالتهما ، وبالبيت الحرام اعتزوا وعلوا على العرب إذ كان مثابة

---

(١) إبراهيم أبو الأنبياء ص ٣١١ . (٢) سورة البقرة آيات ١٢٤ ــ ١٢٩ .

للناس وأمنا .

ولقد بين هذا الجزء من قصة ابراهيم بعث النبى ﷺ وأن ذلك كان استجابة لدعوة ابراهيم . وبذلك تتأكد الصلة بين الإسلام ودعوة إبراهيم .

فالحديث عن إبراهيم واسماعيل تقرير عن حقيقة دين إبراهيم وهو التوحيد الخالص وقرب ما بين عقيدة ابراهيم وعقيدة الجماعة المسلمة بآخر دين . إن هذا الجزء من القصة يوضح ويقرر وحدة دين الله ، واطراده على أيدى رُسُله جميعا . وبيان أن وراثة هذا التراث الدينى لا تقوم على قرابة الدم والجنس ولكن على قرابة الايمان والعقيدة .

فنشأة الأمة المسلمة المؤمنة برسالة محمد ﷺ كانت استجابة من الله لدعوة ابراهيم واسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت الحرام فاستحقت وراثة هذه الأمانة دون ذرية ابراهيم جميعا . وعندئذ تسقط دعاوى قريش فى الاستئثار بالبيت الحرام لأنهم قد فقدوا حقهم فى وراثة بانى هذا البيت بانحرافهم عن عقيدته .

إن التصور الإسلامى يقطع الوشائج والصلات التى لا تقوم على أساس العقيدة والعمل . فعرب الشرك شيء وعرب الإسلام شيء آخر .

ويتعالى الدعاء ، وتنساب نغمة الدعاء وموسيقى الدعاء وجو الدعاء كلها حاضرة كأنها تقع اللحظة حية شاخصة متحركة ، ردّ المشهد الغائب الذاهب ، حاضرًا يسمع ويرى ويتحرك ويشخص وتفيض منه الحياة .. إن فى ثنايا الدعاء أدب النبوة وإيمان النبوة

وشعور النبوة بقيمة العقيدة فى هذا الوجود وهو الأدب والإيمان والشعور الذى يريد القرآن أن يعلمه لورثة الأنبياء وأن يعمقه فى قلوبهم ومشاعرهم .

حين قام ابراهيم واسماعيل فى بناء الكعبة كانت دعوتهما أن يكونا مسلمين لله ، وأن يجعل الله من ذريتهما أمة مسلمة وأن يبعث فى أهل بيته رسولا منهم فاستجاب الله لهما وأرسل من أهل البيت محمدًا بن عبد الله وحقق على يديه الأمة المسلمة القائمة بأمر الله والوارثة لدين الله[1] ومن ثم تواجه الآيات الذين ينازعون الأمة المسلمة الدين والإمامة وينازعون الرسول ﷺ النبوة والرسالة ويجادلون فى حقيقة دين الله ، تواجههم الآيات بالتوبيخ الشديد للمخالفين لملة إبراهيم .

* * *

تلك قصة ابراهيم أخذنا منها بعض المشاهد . ولقد اقتضت حكمة العليم الخبير ذكرها متفرقة الأجزاء فى مواضع مختلفة ، لتكون كل عبرة بجوار خبرها فى القصة . ولو اجتمعت هذه الأجزاء المتفرقة فى مكان واحد وتتابعت مشاهد القصة خبرًا وراء خبر لاختلطت العبرة بالقصة الخبرية وما تميزت العبر .

---

(١) فى ظلال القرآن ص ١١١ ـ ١١٦ مجلد (١) جزء (١) .

الفصل السادس

لمحاتٌ فنية

من خلال ما عرض من النصوص القصصية القرآنية نلاحظ أن القصة القرآنية وقد أوفت بالغرض الديني والإعلامى تمامًا فإن لها سمات فنية خالصة تجعلها ذات تأثير فى المتلقين . فالقصة فى القرآن ذات هدف دينى فى المقام الأول ولكنها مع ذلك قد حققت من خلال السياق والنسق القرآنى المعجز مطالب الفن القصصى وخصائصه وعناصره المميزة .

وهذه العناصر من شخصية وحدث وحوار وصراع قد تحقق فى صورة مميزة ومتشابكة بحيث لا نستطيع أن نفصل عنصرًا عن آخر ، فكل عنصر يتحقق وجوده من خلال العناصر الأخرى المتضافرة معه ، فلا شخصية بلا حدث ولا صراع بلا حوار ، ولا فعل بلا تشابك فى خيوط الحدث وأفعاله .

فالحدث يؤثر فى الشخصية كما تؤثر فيه الشخصية دفعًا إلى الحسم أو هروبًا إلى البعد عنه خوفًا ، ولم يخل موقف من مواقف الدعوة والجدل الذى تتضمنه قصص الأنبياء من حوار هادئ حينا ، أو مشتجر حينا آخر ، أو معجزًا متحديا حينا ثالثًا ، فالحوار له الدور الحاسم فى بلورة الشخصية وكشف الكثير من أبعادها

النفسية والفكرية والعقائدية .

ومع ذلك فهذا التمازج بين العناصر الفنية المكونة للقصة القرآنية لا يأتى على نمط واحد ، وعلى قدر واحدٍ من التساوى أو التوازى بل قد تختلف مناسيب كل عنصر تبعا للموقف الذى يدور حوله الموقف القصصى الخاص .

والقصص القرآنى يثير فى النفس الانفعال ويحرك فى القلب العواطف ويجذب القارئ أو السامع إلى متابعة الموقف القصصى إلى النهاية ، فيبدو الموضوع القصصى ـ الذى يحمل الغرض الدينى ـ عالقًا فى الذهن ، وحيًّا فى النفوس مما يؤدى إلى حالة من التطهير أو من التحول ، أو من الثبات ، ولكنه فى كل الحالات يُبْقِى شيئًا ما مؤثرًا .

ولاشك أن موضوعات القصص القرآنى يمنحها عمقا وأصالة وتأثيرًا إذ تتناول الجانب الهام والأساسى فى الدين كله وهو العقيدة الخالصة والدعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك ، مستخدمة فى ذلك كل البراهين الحسية الدالة على هذا المعنى ، وفى طرائق فنية تستميل القلوب وتستجيش النفوس . ولقد لوّن هذا الغرض العام والكبير من أغراض القصة القرآنية طرائق الأداء التعبيرى ووسائله الفنية الخاصة به كقصص قرآنى متفرد فى الأداء وفى النسق ، وذلك من حيث الاطناب أو الإيجاز ، ومن حيث التكرار أو الإشارة العابرة ، وكذلك من حيث استخدام الحوار ، أو الاكتفاء بالسرد ، فضلا عن التنقل بين الأحداث ، ثم العودة إلى جوهر القصة .. ولم تكتف القصة القرآنية ـ وهى تستخدم هذه الأدوات

الفنية ـ بهذا الغرض الديني الكبير ، بل تناولت كثيرًا من الموضوعات التي تعالج قضايا البعث والحساب ، وقضايا الإنسان ومشاكله مع نفسه وغيره من بني الإنسان .

ومن أبرز الخصائص التي يتميز بها القصص القرآني عن غيره من القصص هو عنصر التصوير الفني . والقرآن الكريم وهو يتناول القصة إنما يعالجها (بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرضها ، فتستحيل القصة حادثًا يقع ومشهدًا يجرى لا قصة تُروى ولا حادثا قد مضى[1]) .

والتصوير الفني يجعل الشخصية شاخصة حيَّة معبرة ، والطبيعة البشرية مجسدة أمامنا تروح وتجيء ، تمتلىء بالحركة وتتدافع بالصراع ، وتتواجد بالحوار الحي الخلاَّق . وليس ذلك فقط بل ثمة تناسق معنوى ونفسى بين القصص التي يعرضها القرآن الكريم والسياق الذى يعرضها فيه وانسجام عرضها فى هذا السياق مع الغرض الديني والمظهر الفني .

وهذا التصوير الفني الرائع وذلك الجمال الأدبي الأخاذ ، المتمازجان فى نسق فني متميز ، قد يتكرر كلما اقتضت الدعوة ذلك ، أو كلما جاء الغرض الديني الذى يدعو إلى ذلك ، والتصوير حين يتكرر إنما يأتى فى صورة تختلف اختلافًا يسيرًا أو كبيرًا وتنفى بذلك وهم التكرار بلا قصد إلا التكرار . والتكرار يسير مع الجمال الفني بالتنويع الدقيق الملحوظ .

---

(١) التصوير الفني فى القرآن ص ١٩٠ .

إن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن . فليس هو حلية أسلوب ولا فلتة تقع حيثما اتفق إنما هو مذهب مقرر وخطة موحدة وخصيصة شاملة وطريقة معينة ، يفتَنّ فى استخدامها بطرائق شتى وفى أوضاع مختلفة ولكنها ترجع فى النهاية إلى هذه القاعدة الكبيرة : قاعدة التصوير . واللغة أداة التصوير الأولى (وباللغة تنطق الشخصيات ، وتتكشف الأحداث وتتضح البيئة ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة[1] .

واللغة لها قدرة هائلة على التشكيل ، فهى بعيدًا عن كونها وسيلة اتصال أو إخبار مباشر فهى تعدُّ جهازًا للتوصيل غير المباشر ، وهو ما نسميه الوظيفة الجمالية للغة . وهذا التوصيل غير المباشر يتأتى من خلال استعمال اللغة بقدرتها التشميلية ، ويكون التشكيل من خلال التصوير . إنه التشكيليةالتكوينى المبنى على أساس المعرفة الشاملة ، وفى هذا يكون العمل الأدبى وحدة واحدة من التشكيل[2] .

واللغة فى التصوير الفنى تستخدم اللون والحركة والخيال والنغمة والإيقاع والوصف والحوار والجرس الصوتى للكلمة وموسيقى السياق . حتى يتحقق الهدف من التَّصوير . إنه تصوير حى منتزع من عالم الأحياء ، لا ألوان مجردة ، وخطوط جامدة . تصوير تقاس الأبعاد فيه والمسافات بالمشاعر ، والوجدانات . فالمعانى تُرسم ، وهى تتفاعل فى نفوس آدمية حيّة أو فى مشاهد من الطبيعة تخلع

---

(١) بناء الرواية د . عبد الفتاح عثمان . ص ١٩٩ . مكتبة الشباب . القاهرة .

(٢) نقد الراوية د . نبيلة إبراهيم ص ٣٩ . الرياض .

عليها الحياة[1] .

● .. أهل الكهف .. نموذج للجمال الفنى .. ●

قال تعالى :

١ - ﴿أمْ حَسبْتَ أصْحَابَ الكَهْفِ والرّقِيم كانُوا منْ آياتِنَا عَجَبًا * إذْ أوَى الفِتْيةُ إلَى الكَهفِ فَقَالُوا ربَّنَا آتِنَا منْ لدُنْك رحمةً وهَيّيء لَنَا منْ أمرنَا رشَدًا * فَضَربْنَا علَى آذانِهم فى الكَهْفِ سنِينَ عدَدًا * ثمّ بعثْنَاهُم لنعْلَم أىَ الحزبَيْن أحْصَى لما لبثُوا أمدًا *

٢ - نحنُ نقصُّ عليْك نبأَهُم بالحقّ ، إنّهم فِتْيةٌ آمنُوا بربِّهم وزدنَاهُم هُدًى * وربْطنا علَى قُلوبِهم إذْ قَامُوا فقَالُوا ربُّنا ربُّ السمٰواتِ والأرضِ لنْ ندْعُوَ منْ دُونِه إلهًا لقدْ قلْنا إذًا شطَطًا * هَؤُلاءِ قوْمُنا اتخذُوا منْ دُونِه آلهةً لَوْلاَ يأتُون علَيْهم بسُلْطانٍ بيّن فمَنْ أظْلَم ممَّن افتَرَى على الله كذِبًا * وإذْ اعتزلْتمُوهُم وَمَا يعْبُدُون إلاَّ الله ، فأْوُوا إلى الكهَف يَنْشُر لكُم ربُّكم منْ رحمته ويُهَيّيء لكُم منْ أمْركُم مِرْفَقًا *

٣ - وَتَرى الشَّمس إذَا طلعَتْ تزاوَرُ عنْ كَهْفهم ذاتَ اليَمِين وإذَا غَرَبَت تَقْرِضُهم ذاتَ الشمالِ وهُم فى فَجْوةٍ منه . ذلكَ منْ آياتِ الله منْ يَهْدِ الله فهُو المهْتَد ومنْ يضْلِلْ فَلَنْ تجدَ له وَليًا مُرْشدًا * وَتحسبُهُم أيْقَاظًا وهُم رُقُود وَنُقلبُهُم ذاتَ اليَمين وذات الشمَال وكَلْبُهم باسِطٌ ذراعَيْه بالوصِيد لو اطّلعْتَ

---

(١) التصوير الفنى سيد قطب ص ٣٧ - ٣٨ .

عَلَيْهم لوَلَّيْتَ منْهُم فِرارًا وَلَمُلِئْت مِنْهم رُعبًا *

٤ ـ وكَذَلكَ بعثْنَاهم ليتَساءَلُوا بيْنَهُم ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم كَمْ لبثْتُم قَالُوا لبثْنَا يوْمًا أوْ بعضَ يَوْم ، قالُوا ربّكم أعْلَمُ بمَا لبثْتُم فابْعَثوا أحدَكُم بوَرِقِكم هذِه إلَى المدِينَة ، فلْينْظر أيّها أزكى طعامًا فَلْيأتِكُم برزقٍ منْه ولْيتَلَطف وَلاَ يُشْعِرَنّ بكُم أحدًا . إنَّهم إنْ يظْهَرُوا علَيكمْ يَرْجُموكُم أوْ يُعيدُوكُم فى مِلَّتِهم ولنْ تُفْلِحوا إذًا أبَدًا *

٥ ـ وكَذلِكَ أَعْثَرْنا علَيْهم ليعلَمُوا أَنَّ الله حَق وأنّ السَّاعةَ لاَ رَيْبَ فيهَا إذْ يتنازَعُون بيْنَهم أمْرَهم فقَالُوا ابنُوا علَيْهم بُنْيانًا ربُّهم أعْلَمُ بِهم ، قالَ الذِينَ غَلبوا على أَمْرِهم لَنتخذَنّ علَيْهم مَسْجِدًا * سيَقُولُونَ ثلاثَةٌ رابِعُهم كلْبُهم ويَقُولون خمسةٌ سادسُهم كلْبُهم رجْمًا بالغَيْب وَيقُولُونَ سبْعة وثامِنَهُم كَلْبُهم قُلْ ربِّى أَعْلَمُ بعدَّتِهم ما يَعْلَمُهم إلاَّ قَليل ، فلا تُمار فِيهم إلاَّ مِراءًا ظَاهِرًا وَلاَ تَستْفتِ فِيهم مِنْهُم أحدًا * ولا تَقُولَنَّ لِشَىءٍ إنِى فَاعِلٌ ذلكَ غَدًا * إلاَّ أن يشاءَ الله واذْكُر ربَّكَ إذا نَسِيت وَقُلْ عسَى أنْ يَهْدِينَ رَبّى لأَقْرَبَ منْ هَذَا رشَدًا *

٦ ـ وَلَبثُوا فى كَهْفِهم ثَلاَثَ مائَةٍ سِنينَ وازْدَادُوا تِسْعًا * قُلْ الله أَعْلَمُ بمَا لبثُوا لهُ غَيْبُ السَّموَاتِ والأَرْضِ أبْصِر به وأَسْمِع ما لَهُم منْ دُونِه منْ وَلِىٍّ وَلاَ يُشْرِكُ فى حُكْمِه أحدًا﴾[1]

● والآيات الكريمة التى تحكى قصة أصحاب الكهف وردت فى

---

(١) سورة الكهف آيات ٩ ـ ٢٦ .

سورة الكهف والتى سميت بهذا الاسم تخليدًا لذكرى هؤلاء الفتية ، ولما فيها من إعجاز إلهى . وسورة الكهف سورة مكية ، والعنصر القصصى هو الغالب على هذه السورة ، والقصص التى وردت من روائع قصص القرآن ، ولقد أبرزت هذه القصص الأهداف والأغراض الدينية الثابتة والأساسية مثل رسوخ العقيدة ، والتضحية فى سبيلها والبعث بعد الموت ثم التواضع من أجل العلم والايمان بالغيب والبعد عن الجدل فيه فضلا عن المعانى العامة التى تتناول مظاهر رسوخ العقيدة فى النفوس مثل الحق الذى يرتبط بالعقيدة وليس بالثراء والسلطان أو الآثار المدمرة للتكبر والغرور أو غنى الفقير لاعتزازه بعقيدته وغناه بها .

وَقصة أصحاب الكهف هى إحدى القصص التى وردت بسورة الكهف وهى تبرز غرضًا دينيا كبيرًا سبق الحديث عنه وهو التضحية فى سبيل العقيدة ، فضْلا عن الإشارة إلى البعث والنشور .

وخلاصة القصة أن ملكًا ظهر بعد زمن عيسى عليه السلام كان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل من لا يستجيب لدعوته . فلما رأى الفتية أن الفتنة قد عظمت حزنوا حزنًا شديدًا ووصل خبرهم الملك ، وتوعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ، ولكنهم أظهروا إيمانهم ، فأمهلهم إلى الغد ، ولكنهم هربُوا ليلا . فلما كان الصباح آووا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنوده ، وطلب الملك أن يسدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين فيه زمنا طويلاً ثم أيقظهم الله وقد ظنوا أنهم لم

يلبثوا إلا يومًا أو بعض يوم . وشعروا بالجوع فبعثوا بأحدهم ليشترى طعامًا مع الحرص والتخفى والحذر . وحين ذهب إلى البلدة وجد المعالم تغيرت ولم يعرف أحدًا . واشترى طعامًا ولما دفع النقود ، جعل البائع يقلبها فى يديه ، فقد كانت غريبة ، ونظر القوم إلى النقود وتعجبوا ، وعلموا أنها من عهد قديم ، وحكى لهم الفتى أنهم جماعة هربوا إلى الكهف من بطش الملك ثم استيقظنا بعد نومنا ، وشعرنا بالجوع فنزلت لأشترى الطعام ، ووصل الخبر إلى ملك البلاد ، وأدرك الملك أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية للناس ثم ألقى عليهم الله النوم وقبض أرواحهم ، فقال الناس لنتخذن عليهم مسجدًا[1] .

● إن قصة أهل الكهف من أروع القصص القرآنى فى صدقه وسرد حقائقه . إنها آية فى التصوير الفنى القصصىِّ الصادق ، فهى فى كل مشهد من مشاهدها تصور الأمر كأنه مُشَاهَدٌ بالحس ، وكأن الإنسان يعاين الوقائع .

١ ـ ففى المشهد الأول : خطاب موجه إلى الرسول بأن قصة أصحاب الكهف ليست أعجب آيات الله فالكون ملىء بالعجائب والغرائب . ولتذكر يا محمد أنهم فتية آمنوا بالله فآووا إلى الكهف لصيانة عقيدتهم من الضلال . فروا من الوثنية إلى الوحدانية وارتضوا جوار الله .

لقد سكن الإيمان وعاء القلب فاستمسكوا به واعتصموا

---

(١) صفوة التفاسير جـ ٢ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

بربهم . وناموا فى يقينهم الدينى ثم بعثوا فاختلف فيهم الناس وتجادلوا .

إن من خصائص القصة القرآنية هو تنوع العرض ذلك أن عرض القصة لا يأتى على نمط واحد ، بل هو متعدد الطرائق . ففى المشهد الأول من قصة أصحاب الكهف قد وردت القصة ملخصة فى إيجاز شديد يحتوى جوانب الحدث كله ، الايمان ، الذهاب إلى الكهف ، الدعاء بالرشاد ، النوم ، البعث ، حيرة الناس :

وهذا التلخيص الموجز الذى بدأت به القصة إنما جاء لضرورة فنية ذلك أن التلخيص ما هو إلا مقدمة شيقة تثير الذهن ، وتجذب بالألباب ، وتثير الانتباه والمسامع إلى التفصيلات المتتابعة بعد هذا الإيجاز .

٢ ــ وبعد هذا التلخيص المشوق يبدأ المشهد الثانى فى تفصيل القصة اليقينية . فهم الآن فى كهفهم بعيدًا عن قومهم نراهم رأى العين قد ربط الله تعالى على قلوبهم حتى أصبحت قلوبا ثابتة راسخة ، وهم حين آووا إلى الكهف قطعهم الله عن لغو الوثنية وظلم أهلها فاجتمع لهم الانزواء عن الناس والبعد عنهم بالحس فلا يرون الناس ولا يسمعون عنهم .

إن أصحاب الكهف ليسوا رسلا إلى قومهم ليواجهوهم بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إليها إنما هم فتية تبين لهم الهدى وسط ظلام الكفر . إنهم يستروحون فى ضيق الكهف وخشونته رحمة الله . ويحسونها ظليلة فسيحة ممتدة . إن لفظة « ينشر » تلقى ظلال السعة والبحبوحة والانفساح فى فضاء الكهف وتتسع خيوطها

وتمتد ظلالها لتشملهم بالرفق واللين والرخاء .

إن تلك اللفظة الواحدة فى هذا السياق التصويرى الرائع وهو يقوم بنقل حركة القلب واطمئنانه ، لتدل على أن هناك عالما آخر فى جنبات القلب مغمورًا بالإيمان ، مأنوسا بالرحمن ، تظلله الرحمة والرضوان .

٣ ـ وفى المشهد الثالث تصوير رائع لنومهم وحركة نعاسهم . فها هى الشمس تميل عن الكهف عند طلوعها وغروبها كرامة من الله حتى لا تؤذيهم ، وها هم رقود يبدون فى غيبوبة النوم كأنهم الموتى وتظنهم أيقاظًا وهم رقود ، وهم فى نومهم يتقلبون . يقول ابن عباس : لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ولو أنهم لا يقلَّبون لأكلتهم الأرض . ورؤيتهم ـ وكلبهم على عادة الكلاب باسط ذراعيه يحرسهم ـ يثيرون الرعب والخوف والرهبة . إذ أن منظرهم يثير الدهشة ، فهم نيام كالموتى ولكنهم أيقاظ وهم يتحركون تقلبا من جنب إلى جنب ولا يستيقظون . إن ذلك كله من تدبير الله .

إن المسرح بكل ما فيه من وسائل تعبيرية ، يكاد يعجز عن تصوير الحركة المتماوجة ، حركة الشمس وهى « تزاور » عن الكهف ، عند مطلعها فلا تضيئه وتتجاوزهم عند مغيبها فلا تقع عليهم ، إن أسباب الحياة مهيئة لهم وهم رقود . إن لفظ « تزاور » تصور مدلولها وتلقى ظل الإرادة فى عملها .

٤ ـ وفى المشهد الرابع ، تدب فيهم الحياة ، ويستيقظون بعد رقدتهم الطويلة التى تشبه الموت . وكان أول ما يسألون عنه كم لبثتم ؟ فيكون الجواب لبثنا يومًا أو بعض يوم ، ونحن المتلقين للقصة

نعلم أنهم لبثوا سنين عددا . أما هم فجاهلون لما حدث ، ولكنهم يشعرون بالجوع وهم يتخوفون أن ينفضح أمرهم وهم يوصون الرسول منهم أن يتلطف حتى لا يعرف القوم مقرهم فيؤذوهم . ولكننا المتلقين نعرف أن لا أحد هناك يردهم عن دينهم .. إننا هنا أمام خيطين متوازيين خيط معلوم ، يعلمه المتلقى وخيط مجهول يفعله فتية الكهف ، إن ذلك مدعاة إلى معايشة المتلقى لواقع أصحاب الكهف ومصاحبتهم ، ليعلم ردّ فعل المفاجأة عليهم ، إنهم يتتبعون طريقهم ويتلمسونه وعيون المتلقين ترصد خطواتهم .

وبالرغم من اختلافهم فى الزمان وحيرتهم ، فتلمسهم للحياة عن طريق طلب الرزق تصوير بشرى بحت . فها هى النقود معهم ولا يحتاجون إلا المضى إلى البلدة للشراء ، مع الحذر والسماح والبعد عن الجدل .. وكانت النقود هى رمز الكشف عن طبيعة هؤلاء الفتية الذين ظلوا سنين طويلة رهناء للكهف . لا يدرون أن الأعوام كرّت وعجلة الزمان دارت . وأن المتسلطين على عقيدتهم قد دالت دولتهم .

٥ ـ وفى المشهد الخامس يعثر الناس على أمرهم بعد أن أدركوا قدم النقود وعرفوا حقيقتهم ، وكان إلهام الله بذلك ليعرف الناس حقيقتهم وتكون حياتهم فى الكهف وقدرتهم فيه دليلا محسوسًا على أن وعد الله تعالى بالقيامه حق .

وفى هذا المشهد يبرز الغرض الدينى من القصة . التضحية فى سبيل العقيدة ، والبعث بعد الموت ، ويوم القيامة حيث الجزاء والحساب .

ولقد قبضهم الله بعد استيقاظهم ليكونوا عبرة وعظة ومثلاً حيًا محسوسًا للناس . ولقد تجادل القوم حول مدتهم واختلفوا حول عددهم ، ففريق رأى أن يبنى بنيانًا عليهم ، ليكون علما عليهم ، وفريق آخر رأى أن يبنى مسجدًا يعبدون فيه الله ، وكل من الفريقين فى قوله ورغبته دلالة على الانبهار بالمعجزة التى شاهدوها عيانًا ، والإشارة من القول علامة فقط على المعجزة ..

أما الاختلاف فى العدد فجاء متأخرًا ، فمن قائل أنهم ثلاثة ، أو خمسة ، أو سبعة مع إضافة الكلب إلى كل عدد . واليهود يجادلون رسول الله فى عددعم ، وتخاطب الآية الرسول إلى أن الأكرم والأكمل أن يترك أمر العدد كله إلى الله ، فليس الهدف هو عددهم ، وإنما المغزى الدينى الذى يمثلونه .

والآيات تنهى عن الجدل فى غيب الماضى كما تنهى عن الحكم فى غيب المستقبل . ومن ثم جاء النهى عن ذلك (ولا تقولن لشىء ... إلخ) وعلى الإنسان أن يفكر ويشعر أنه يفكر بتيسير الله . وأنه لا يملك إلا ما يمده الله به من تفكير وتدبير وذلك من التوجيهات الدينية ، وتأتى كلمة « عسى » وكلمة (لأقرب) للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه فى جميع الأحوال .

٦ ــ وفى هذا المشهد الأخير الذى يأتى تعقيبا على قصة أصحاب الكهف نعلم الذى كان مجهولاً وهو الزمان الذى استغرقه الرقود ــ اليقظ فى الكهف . فها هو فصل الخطاب الذى يقرره خالق السموات والأرض . فهو جلّ وعلا المختص بعلم الغيب . وفى

هذه الجزئية من التصوير وتناسقا مع السّياق ، يرد التعجب متلائما تمامًا مع موضعه السياقى وتناسقه التعبيرى ، إنه دلالة على إدراك الخفيات كإدراك الظاهريات . ما أسمعه ! وما أبصره ! لقد اجتمعت حواس الإدراك الأساسية التى لا غنى لعلم أو معرفة عنها ، البصر والسمع .. وإذا كانت الآيات الكريمة قد تحدثت عن العدد كما تحدثت عن الزمان .. فإن القرآن الكريم لم يترك من الصورة المكانية شيئًا إلا بينه وصوره ، فيذكرهم وكلبهم يحرسهم وهو بالوصيد ، وهو فجوة بالجبل الذى فيه الكهف . لقد صورت الآيات الكهف تصويرًا دقيقا ، بفجواته ومسارب هوائه واتساعه ورحابته . إن التصوير القصصى كامل تمامًا حتى ليرى القارئ المكان صورة عيانية محسَّة ، وكأنها مصورة بصورة باهرة ، نتعرف فيها على ملامحها وجنباتها وأركانها وزواياها ، وليست كلامًا يقرأ .. ولكن الفرق هو فى درجة التصوير الربانية التى تعلو على كلّ أداة تعبيرية لديها الطاقة الهائلة على رسم الصور وتكوينها ..

إنه كلام الله تعالى العزيز الحكيم المبدع المصور[1] .

---

(١) انظر حول هذه القصة .
(ا) فى ظلال القرآن مجلد ٤ جزء ١٥ ص ٢٢٥٦/٢٢٦٦ .
(ب) القرآن المعجزة الكبرى ٢٠٨ ـ ٢١١ .
(جـ) صفوة التفاسير. جـ٢ ص ١٨٣ ـ ١٨٨ .
(د) التصوير الفنى ١٨١ ، ١٩٠ ـ ١٩٥ .

الخاتمة

ويبقى لمؤلف الكتاب كلمة توجيهية يقصد بها غاية سامية تنفع المسلم وتدعم العقيدة فى نفوس الناشئة ، وتضع على طريق الفن القصصى الإسلامى علامة قرآنية مميزة .

فمجال الإفادة من القرآن الكريم فى مجاله القصصى أمر وارد الالتزام به . ولكن الإفادة هنا لا تعنى محاكاة القصة القرآنية فى موضوعها ووسيلة أدائها .. فإن ذلك لا يتأتى لمبدع هذا الزمان وأى زمان . وإنما على المبدع فى هذا المجال القصصى أن يبدع فى إطار التوجيه القرآنى .. للقصة القرآنية ، وهذا يعنى أن عليه أن يلتزم فى أدائه القصصى ، أن ينطلق عملُه ـ وهو يصور الحياة والأشخاص والأحداث والصراعات ـ من منطلق إسلامى . بحيث لا يتصادم العمل القصصى مع المفاهيم القرآنية للمجتمع المسلم .

ويجب على المبدع وهو يبدع قصصه فى ضوء التوجيه القرآنى أن يكون بعيداً عن الوعظ والمباشرة والخطابية ، ويستفيد متأثرًا من الجانب الإيحائى والإشارى الذى تلتزم به القصة القرآنية وهى تدعو إلى غرض دينى ، أو تصور مشهدًا من المشاهد يدور بين الخير والشر ، أو العدل والظلم ، إن القصة القرآنية توحى وتلمح وتشير ، ولا تخاطب فتباشر ، فتنفر القارئ .

وإن من القيم الفنية التى ترسى مبادئها القصة القرآنية ، قيمتى الجمال والقبح ، فكليهما يكون فى موضعه تماما ، مادامًا قد جاءا عبر نسق جمالى يتوفر فيه التوازن وروعة التعبير . ومن ثم يصبح التناول جميلا وهو يتعامل معهما عبر المشاعر والمواقف والعواطف والسلوك . بحيث يصبح الموقف مشاهدًا ومحسًّا بجميع أبعاده ، لحظتها تشتاق النفس إلى الجمال وتسعى إليه ، وتميل عن القبح وتنفر منه . دون أن يجنح الأداة إلى مباشرة ، أو وعظ .

ومن ثم تنطلق أداة التعبير ، وقد تلمست أداة التعبير القرآنية ، إلى تصوير حياة الإنسان فى شتى حالاته ومتغيراته زمانًا ومكانًا ، وإلى تصْوير النفس البشرية فى شتى حالاتها انفعالاً وتقلبا ، وتصوير القيم الأخلاقية فى تعدد مناحيها ودرجات دلالاتها . وهى فى ذلك كله لا تصطدم ولا تتعارض مع النظرة القرآنية إلى الفن والقصة . ذلك لأنه لا تعارض بين حقيقة الشىء وجماله .

ولأن للقصة تأثيرًا على الفرد وعلى الجماعة .. ولأن للمجتمع الإسلامى تكوينه الخاص وانطلاقاته الخاصة ، ولأنه المسلم فى هذا الزمان الصعب معرض لغزوات فكرية وثقافية تستهدف دينه وقيمه ، ولمّا كانت إحدى وسائل هذه الغزوات المدمرة نشر القصص الردئ المدمر للقيم وللذات الإنسانية .. لذلك كله فإنه يجب صياغة قصص القرآن صياغة جديدة مكتملة بحيث ترتبط أجزاؤها المتفرقة فتصبح قصة كاملة .. سواء فى ذلك أن تتناول قصص الأنبياء والرسل ، أو قصص المؤمنين المضحين فى سبيل العقيدة ، أو بعض الأمثلة القصصية التى ضُربت للتعبير عن قيم

معينة ، مثل الحق والخير والجمال ، وذلك فى أسلوب تعبيرى يبلغ درجة عالية فى التشويق والتخييل ، وتضمين القيم المراد بعثها عبر العمل فى خفة ، ورقة تكاد لا تدرك .

ولا يتوقف الأمر عند ذلك بل يجب أن نعمل على خلق قصص جديد يتسم بالأخلاق المبثوثة فى قصص القرآن وفى غيرها من آيات القرآن الكريم . إننا يجب أن نقيم كيانًا أدبيا كبيرًا وشامخًا على تلك المعانى والقيم التى جاء بها القرآن . حتى نسير على هديه مسلكا ، وحتى تصبح لنا خصوصيتنا الفنية ، وعلامتنا المميزة فى عالم القصة .

وكذلك مسرحة قصص القرآن بحيث تؤدى القصة المشاهدة دورها فى التأثير الوقتى السريع .

إننا لو فعلنا ذلك لدعمنا العقيدة فى النفوس ولوضعنا على طريق الفن القصصى علامة قرآنية مميزة .

• المـــراجـــع •

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ تفصيل آيات القرآن الكريم ـ نقل محمد فؤاد عبد الباقى ـ دار القبلة .

٣ ـ فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق ـ مصر .

٤ ـ صفوة التفاسير ـ محمد على الصابونى ـ دار القرآن الكريم ـ بيروت .

٥ ـ الإنسان فى القرآن الكريم ـ عبد الكريم الخطيب ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة .

٦ ـ معلمة الإسلام ـ أنور الجندى .

٧ ـ من هدى القرآن ـ أمين الخولى ـ هيئة الكتاب ـ القاهرة .

٨ ـ التبيان فى علوم القرآن ـ محمد على الصابونى ـ مكتبة الغزالى ـ دمشق .

٩ ـ ابراهيم أبو الأنبياء ـ عباس محمود العقاد ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت .

١٠ ـ التصوير الفنى فى القرآن ـ سيد قطب ـ دار الشروق .

١١ ـ منهج الفن فى الإسلام ـ محمد قطب ـ دار الشروق .

١٢ ـ منهج التربية الإسلامية ـ محمد قطب ـ دار الشروق .

١٣ ـ القرآن المعجزة الكبرى ـ محمد أبو زهرة ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة .

١٤ ـ القصص فى الحديث النبوى ـ محمد بن حسن الزير ـ دار اللواء ـ الرياض .

١٥ ـ سيكلوجية القصة فى القرآن ـ التهامى نفرة ـ الشركة التونسية ـ

تونس .
١٦ ـ القصص فى الأدب العربى ـ محمود تيمور ـ الجامعة العربية ـ القاهرة .
١٧ ـ قصص العرب ـ محمد أحمد جاد المولى وآخرون ـ دار إحياء الكتب العربية .
١٨ ـ القصة فى التربية ـ عبد العزيز عبد المجيد ـ دار المعارف ـ القاهرة .
١٩ ـ أصول التربية الإسلامية ـ سعيد اسماعيل على ـ دار الثقافة ـ القاهرة .
٢٠ ـ القصة القصيرة نظريا وتطبيقيا ـ يوسف الشارونى ـ دار الهلال ـ القاهرة .
٢١ ـ خصائص التصور الإسلامى ـ سيد قطب ـ المعارف السعودية ـ المكتبات المدرسية .
٢٢ ـ الإسلام والمذاهب الحديثة ـ فتحى رضوان ـ اقرأ ـ دار المعارف .
٢٣ ـ بناء الرواية ـ عبد الفتاح عثمان ـ مكتبة الشباب ـ القاهرة .
٢٤ ـ نقد الرواية ـ نبيلة إبراهيم ـ النادى الأدبى ـ الرياض .
٢٥ ـ علم النفس ـ جميل صليبا ـ دار الكتاب اللبنانى .
٢٦ ـ لسان العرب ـ ابن منظور ـ الجزء الثامن .
٢٧ ـ الوعى الإسلامى ـ عدد ٢١٣ ـ رمضان ١٤٠٢هـ .
٢٨ ـ اليقظة ـ ديسمبر ١٩٨٥
٢٩ ـ الهلال ـ ديسمبر ١٩٧٠ .
٣٠ ـ القافلة ـ رجب ١٤٠٥هـ .

● المحتوى ●

صدر من هذه السلسلة

الكتاب	المؤلف
١ ـ تأملات فى سورة الفاتحة	[الدكتور حسن باجودة]
٢ ـ الجهاد فى الإسلام مراتبه ومطالبه	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣ ـ الرسول ﷺ فى كتابات المستشرقين	[الأستاذ نذير حمدان]
٤ ـ الإسلام الفاتح	[الدكتور حسين مؤنس]
٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكرى	[الدكتور حسان محمد حسان]
٦ ـ السيرة النبوية فى القرآن الكريم	[الدكتور عبد الصبور مرزوق]
٧ ـ التخطيط للدعوة الإسلامية	[الدكتور على محمد جريشة]
٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الإسلامية	[الدكتور أحمد السيد دراج]
٩ ـ النوعية الشاملة فى الحج	[الأستاذ عبد الله بوقس]
١٠ ـ الفقه الإسلامى آفاقه وتطوره	[الدكتور عباس حسن محمد]
١١ ـ لمحات نفسية فى القرآن الكريم	[د. عبدالحميد محمد الهاشمى]
١٢ ـ السنة فى مواجهة الأباطيل	[الأستاذ محمد طاهر حكيم]
١٣ ـ مولود على الفطرة	[الأستاذ حسين أحمد حسون]
١٤ ـ دور المسجد فى الإسلام	[الأستاذ على محمد مختار]
١٥ ـ تاريخ القرآن الكريم	[الدكتور محمد سالم محيسن]
١٦ ـ البيئة الإدارية فى الجاهلية وصدر الإسلام	[الأستاذ محمد محمود فرغلى]
١٧ ـ حقوق المرأة فى الإسلام	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
١٨ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته [١]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
١٩ ـ القراءات أحكامها ومصادرها	[الدكتور شعبان محمد اسماعيل]
٢٠ ـ المعاملات فى الشريعة الإسلامية	[الدكتور عبد الستار السعيد]
٢١ ـ الزكاة فلسفتها وأحكامها	[الدكتور على محمد العمارى]
٢٢ ـ حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	[الدكتور أبو اليزيد العجمى]

الكتاب	المؤلف
٢٣ ـ الأقليات المسلمة فى آسيا وأستراليا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٢٤ ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	[الدكتور عدنان محمد وزان]
٢٥ ـ الإسلام والحركات الهدامة	[معالى عبد الحميد حموده]
٢٦ ـ تربية النشء فى ظل الإسلام	[الدكتور محمد محمود عمارة]
٢٧ ـ مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى	[الدكتور محمد شوقى الفنجرى]
٢٨ ـ وحى الله	[الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
٢٩ ـ حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن	[حسن أحمد عبدالرحمن عابدين]
٣٠ ـ المنهج الإسلامى فى تعليم العلوم الطبيعية	[الأستاذ محمد عمر القصار]
٣١ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣٢ ـ الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٣٣ ـ الاعلام فى المجتمع الإسلامى	[الأستاذ حامد عبد الواحد]
٣٤ ـ الإلتزام الدينى منهج وسط	[عبدالرحمن حسن حبنكة الميدانى]
٣٥ ـ التربية النفسية فى المنهج الإسلامى	[الدكتور حسن الشرقاوى]
٣٦ ـ الإسلام والعلاقات الدولية	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
٣٧ ـ العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	[اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ]
٣٨ ـ معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها	[الدكتور محمود محمد بابللى]
٣٩ ـ النهج الحديث فى مختصر علوم الحديث	[الدكتور على محمد نصر]
٤٠ ـ من التراث الاقتصادى للمسلمين	[الدكتور محمد رفعت العوضى]
٤١ ـ المفاهيم الاقتصادية فى الإسلام	[د. عبدالعليم عبدالرحمن خضر]
٤٢ ـ الأقليات المسلمة فى أفرقيا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٣ ـ الأقليات المسلمة فى أوروبا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٤ ـ الأقليات المسلمة فى الأمريكتين	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]

الكتاب	المؤلف
٥١ ـ مفهوم القيادة فى إطار العقيدة الإسلامية	[الدكتور سيد عبدالحميد مرسى]
٥٢ ـ مايختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربى والماركسى	[أنور الجندى]
٥٣ ـ الشورى سلوك والتزام	[د. محمد أحمد البابلى]
٥٤ ـ الصبر فى ضوء الكتاب والسنة	[أسماء عمر فدعق]
٥٥ ـ مدخل إلى تحصين الأمة	[د. أحمد محمد الخراط]
٥٦ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٥٧ ـ كيف تكون خطيباً	[الشيخ عبد الرحمن خلف]
٥٨ ـ الزواج بغير المسلمين	[الشيخ حسن خالد]
٤٥ ـ الطريق إلى النصر	[الأستاذ محمد عبد الله فودة]
٤٦ ـ الإسلام دعوة حق	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٤٧ ـ الإسلام والنظر في آيات الله الكونية	[الدكتور محمد عبدالله الشرقاوي]
٤٨ ـ دحض مفتريات	[د. البدراوى عبدالوهاب زهران]
٤٩ ـ المجاهدون في فطاني	[الأستاذ محمد ضياء شهاب]
٥٠ ـ معجزة خلق الإنسان	[د. عبد الرحمن عثمان]

تنبيه

لحدوث خطأ فى الترقيم فقد تقدمت الأرقام من ٥١ ـ ٥٨ على الأرقام من ٤٥ ـ ٥٠ .

طبع بمطابع رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة

من شروط البحث المقدم للسلسلة

١ ـ أن يكون البحث المقدم فى خدمة الدعوة الإسلامية .
٢ ـ ألَّا يكون قد سبق نشره .
٣ ـ أن يكون سالماً من الأخطاء العلمية واللغوية وموثوقاً توثيقاً علمياً مع ذكر المصادر التى اعتمد عليها الباحث .
٤ ـ أن تكون الآيات القرآنية مرقمة مع ذكر السورة ، وكذلك الأحاديث النبوية لا بد أن تكون مخرجة ، وأن تكون الاشارة إلى الآيات والسور والمراجع الأخرى فى هامش أسفل الصفحة .
٥ ـ ألَّا يزيد البحث عن مائة وخمسين صفحة حجم (الفلوسكاب) .
٦ ـ أن يكون البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة كتابة جيدة وتبقى صورته لدى المؤلف ولا تلتزم ادارة الصحافة والنشر بإعادة البحث فى حالة عدم نشره .
٧ ـ أن يذيل البحث بأسماء المصادر والمراجع التى اعتمد عليها الباحث ، وفهرس عام للموضوعات مع ذكر نبذة عن حياة المؤلف .

علماً بأن الرابطة تقرر مكافأة تتناسب مع القيمة العلمية للبحث وذلك بعد نشره .

والله الموفق .

هذا الكتاب ..

دراسة القصة القرآنية على جانب كبير من الأهمية لأن القصة قالب تربوي تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها، وإلى النفوس فتنفضها نفضا .. ولقد جاءت القصة في القرآن متوزعة على السور كلها وهذا التوزع مرتبط بإبراز الغرض الديني ومتناسق مع الموقف والحدث . إن القصة القرآنية تندرج تحت القضية الكبرى للتعبير القرآني .. فالتعبير القرآني في كل ما يورده من صور وقصص ومشاهد يؤلف تأليفا ممتزجا بين الغرض الديني والغرض الفني . إن بناء العقيدة في النفوس يحتاج إلى الوسائل المؤثرة التي تتغلغل إلى القلب مباشرة ولا شك أن القصة من أهم هذه الوسائل التعبيرية .

مطابع رابطة العالم الإسلامي ـ مكة المكرمة